د. رابح زرواتي



أخلاقيات الحرب

في السيرة النبوية

دار ابن حزم





أخلاقيات الحرب

في السيرة النبوية

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] قرآن كريم

«... وإنما بعثت رحمة»، حديث شريف (أخرجه مسلم).

د. رابح زرواتي

دار ابن حزم



الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-614-416-003-9

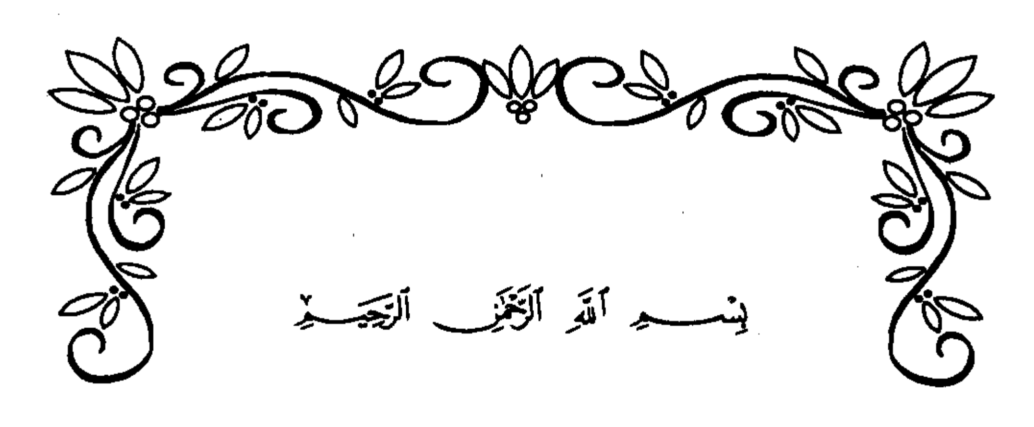
دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين عن خير الخلق أجمعين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأفضل السلام وأطهره وأزكاه وأتمه على من زكاه رب العالمين في كتابه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، سيد الأولين والآخرين محمد بن عبدالله الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فآمل من المولى عزَّ وجلَّ أن ينفع بهذا الكتاب، وينبه به كل من كان غافلاً عن الكنوز الثمينة التي ورثتها أمتنا عن رسول الله ﷺ، فيجدّ في الكشف عنها ويتناول الدواء الناجع منها، وما أكثرها من كنوز، وما أنفعها من أدوية، لو أنها وافقت ذوي ألباب يتعلمون منها الهدى والحكمة وأصحاب عزائم يأخذون بها ويعضون عليها بالنواجذ.

لقد تنوعت عللنا وتعددت، وتكاد تأتي علينا، فما أحوجنا في هذا الزمن للاستشفاء بسيرة رسول الله ﷺ.

ولقد قصرنا أيما تقصير في إبلاغ دين الله لعباد الله، وإنها لأمانة

حملها رسول الله ﷺ فأداها كاملة غير منقوصة، ثم حملها من بعده صحابته رضوان الله عنهم فأحسنوا أداءها، ثم حملها من كل خلف عدوله، إلى أن وصلت إلينا، فهل أدينا ما علينا؟

لو انتفعنا بسيرة نبينا ﷺ في حياتنا، والتزمنا بأخلاقه ﷺ في سلوكنا، لقدمنا للعالم صورة مشرقة ومشرّفة عن الإسلام، ولأقبل عليه طواعية كل ذي عقل حر وفطرة سليمة، وكنا بذلك قد أنقذنا أنفسنا من عقاب الله على هجراننا لديننا، وأنقذنا الحيارى والتائهين في دروب الأهواء والشهوات.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

د. رابح زرواتي





تمهيد

قضى المسلمون الأولون ثلاث عشرة سنة في مكة يتلقون الضربات الموجعة باستمرار ولا يَرُدُّون، ويتعرضون لجميع أنواع الذل والهوان ولا يدافعون، قرّر خلالها المشركون ألَّا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه، ولما اشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم[1] إلى رسول الله ﷺ يستنجد به قائلاً له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: **«قد كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فَيُشَقُّ باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**[2].

فرّ المسلمون إلى المدينة وأحزاب الكفر تطاردهم من كل ناحية، ونُهبت أموالهم وسُلبت دورهم وشُرِّدوا من البلد الحرام، على أن العداوة للنبيّ ﷺ وصحبه تجاوزت قريشاً إلى غيرهم من مشركي الجزيرة، وعبدةُ الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يجاهرون بخصومتهم للإسلام، وانضم إلى هؤلاء وأولئك اليهود الذين أوجسوا خيفة من انتشار هذا الدين.

---

(١) خباب بن الأرت ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٦): ١٣٢٢/٣.

فما بد ـ إذاً ـ من التأهب لكل طارئ، فأخذ المسلمون يستعدّون حتى لا تقتحم المدينة عليهم، وقد تعلّموا من السنين التي مرت عليهم في مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان، ومَن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عبر الماضي؟[1].

□ □ □ □ □ □

(١) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٢٢٢ ـ ٢٢٦.



دوريات استطلاع

لما استقر المسلمون في المدينة أخذوا يرسلون سراياهم تستطلع أحوال الصحراء، فقد خرج حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين في رمضان من السنة الأولى، وفي شوال من السنة نفسها سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى وادي رابغ، وفي ذي القعدة خرج سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين رجلاً، وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول ﷺ بنفسه وعقد حلفاً مع بني ضمرة، وفي ربيع الأول من السنة نفسها خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار، وفي جمادى خرج ﷺ إلى العشيرة من بطن «ينبع» وأقام شهراً صالح فيه بني مدلج.

أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستاق سرحها[1]، فخرج النبيّ ﷺ في طلبه حتى بلغ قريباً من بدر ولم يدركه، وهذه هي غزوة بدر الأولى.

سبب هذه الدوريات:

سببها هو ملاحقة قريش للمسلمين بعد طردهم من مكة، فقد كتبوا إلى عبدالله بن أبي بن سلول[2] وأصحابه: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا

(١) السّرح: المال السائم. مختار الصحاح، الرازي، ماد (سرح): ص١٩٤.
(٢) رئيس الأنصار قبل الهجرة، وكادوا يجعلونه ملكاً عليهم لولا أن هاجر النبيّ ﷺ وآمنوا به.

نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم»[١].

ثم إن قريشاً أرسلت للمسلمين تقول لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم»[٢].

وقد تأكد هذا الوعيد لدى النبيّ ﷺ مما جعله يبيت ليله ساهراً أو في حرس من أصحابه، فعن عائشة ﵂ قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: **«ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»**. قالت فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: **«مَن هذا؟»**، قال: سعد بن أبي وقاص. فقال له رسول الله ﷺ: **«ما جاء بك؟»**، قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه. فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام»[٣].

وكانت هذه الحراسة مستمرة، مما يدل على دوام خطر قريش، قالت عائشة: «كان النبيّ ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: **«يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله»**»[٤].

ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول الله ﷺ، بل على المسلمين كافة، قال أُبيّ بن كعب: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب في خبر النضير، رقم (٣٤٠٠): ١٥٦/٣، وعبدالرزاق في مصنفه، (٩٧٣٣): ٣٥٨/٥.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﵁، رقم (٢٤١٠): ١٨٧٥/٤.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٤٦): ٢٥١/٥، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم (٣٢٢١): ٣٤٢/٢.

(٥) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٢٢٧ ـ ٢٢٩.

أي حقد هذا الذي ملأ قلوب المشركين، وأي نفَس طويل لدى قريش؟! يصرون على حرب دائمة ضد ثلة من المستضعفين، لم ترتكب أي جرم إلا أنهم قالوا: ربنا الله! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

لم تكتف قريش بإخراج المسلمين من ديارهم ظلماً وعدواناً، بل ألّبت عليهم العرب، وأصبحت القلة الضعيفة تحت غضب سيف الكثرة الطاغية، وأحاط الموت بالمسلمين من كل مكان، وتأمل قول أبيّ بن كعب: «رمتهم العرب عن قوس واحدة»، لتعلم مدى الخطر الداهم الذي كان يتهدد المسلمين، وتدبر قوله وهو يصف المسلمين: «وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه» لتستبين الخوف الدائم الذي كان يعانيه المسلمون.

أليس هذا كله مبرراً كافياً للمسلمين كي يعملوا على تكوين قوة دفاعية تحفظ لهم بقاء دينهم ونفوسهم؟ أليس لهم الحق في أن يحيوا في أرضهم آمنين مطمئنين؟ ذلك هو عين الحكمة والصواب، بل ذلك هو الواجب الذي يفرضه الدين ويحتّمه الواقع حتى لا يبقى الإسلام والمسلمون كلأً مباحاً لعبدة الأوثان.

في هذه الظروف الخطيرة أذن الله للمسلمين بأن يدافعوا عن أنفسهم، ومع ذلك لم يفرضه عليهم فرضاً، وكانوا من قبل في مكة مأمورين بالصبر فقط، فنزل قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

وجاء هذا الإذن محدوداً بإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

نتائج هذه الدوريات والحكمة منها:

لم يحصل قتال أثناء قيام هذه الدوريات بعملها الاستكشافي، وذلك ما يؤكد أن الهدف من توجيهها يتلخص فيما يلي:

١ ـ الاستطلاع: استطاع المسلمون التعرف على الطرق والقبائل المحيطة بالمدينة.

٢ ـ ربط العلاقات الودية: تمكن المسلمون من التعرف على قبائل المنطقة وعقدوا مع بعضهم الصلح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

٣ ـ أثبت المسلمون أنهم يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ودينهم تجاه من تسول له نفسه أن يستبيح حماهم، وفي ذلك حفظ للنفوس من أن تزهق، إذ الخوف من مقاتلة القوي يؤدي إلى عدم وقوع القتال، وهو يشبه في زماننا الاستعراضات العسكرية التي تقوم بها بعض الدول، فمن خلال ذلك تمرر رسالة لغيرها بعدم التفكير في مهاجمتها، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٤ ـ كانت هذه الدوريات مسلحة وقد جابت الصحراء طولاً وعرضاً، ولا شك أنها مرت بقبائل قليلة العدد والعدة، ومرت برعاة الإبل والغنم، والتقت بمسافرين أنهكهم التعب، وبتجار يحملون أرزاقهم وأرزاق ذويهم... إلخ، فهل فكر المسلمون ـ وهم أقوياء ـ في إبراز عضلاتهم على الآخرين، أو طمعوا في الاستيلاء على أموالهم وخيراتهم؟

كيف يفعلون ذلك وهم الذين رباهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج: ٤١].

٥ ـ أراد المسلمون من ذلك أن تترك لهم الحرية لنشر دعوتهم دون مواجهة مسلحة، بل بالأخلاق السامية والبراهين الساطعة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل: ١٢٥][1].

---

(١) وانظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٢٢٧ ـ ٢٢٩، الرسول القائد، محمود شيت خطاب: ص٥٣ ـ ٦١.

شبهة والرد عليها:

ذكر الشيخ الغزالي شبهة لبعض المستشرقين في هذا الموضوع ورد عليها رداً جميلاً، فقال: «والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق، وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعمي عن الحقائق، ويتيح للهوى أن يتكلم ويحكم كيف يشاء.

وقد ذكرني هذا الاستشراق المغرض بما حكوه عن قمع الإنجليز لثورة الأهليين في أفريقيا الوسطى ـ مستعمرة كينيا ـ وهم يطلبون الحرية لوطنهم ويحاولون إجلاء الأجانب عنه.

قال جندي إنجليزي لآخر ـ يصف هؤلاء الإفريقيين ـ: «إنهم وحوش، تصور أن أحدهم عضني وأنا أقتله!».

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة والنعي على الإسلام وأهله»[1].

دورية عبدالله بن جحش:

في رجب من السنة الثانية بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش في ثمانية من المهاجرين، وأعطاه رسالة وأمره ألا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، فإذا فتحها مضى في تنفيذها غير مستكره أحداً ممن معه على مرافقته.

وكان مضمون الرسالة: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم**»[2].

أَطْلَعَ عبدُالله مَن معه على كتاب الرسول ﷺ في الوقت المناسب، فلم يتخلف منهم أحد، إلا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فقد ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل فأسرتهما قريش، وواصل عبدالله ومن بقي معه

---

(١) فقه السيرة: ص٢٢٩.

(٢) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٧٥/١.

طريقهم إلى «نخلة» فمرت قافلة لقريش فهاجمها المسلمون، وأسفرت المعركة على قتيل واحد من قريش وأسر رجلين منهم[1].

هدف هذه الدورية:

لم يكن الهدف هو قتال قريش، بدليل أن عدد المسلمين كان ثمانية أشخاص، وإنما الهدف كان استطلاع أخبار قريش، ومضمون رسالة النبيّ ﷺ شاهد على ذلك، وقد تم تحقيق هذا الهدف فعلاً حيث وصل المسلمون إلى «نخلة» وحصلوا على المعلومات.

نتائجها:

١ ـ أدى اندفاع عبدالله بن جحش إلى القتال في الشهر الحرام، ولم يكن الرسول ﷺ يريد قتالاً بل كان يريد استطلاعاً.

٢ ـ قتل واحد من المشركين وقد أدى النبيّ ﷺ ديته لأهله، أما الأسيران فقد أسلم أحدهما وعاد الآخر أدراجه إلى مكة سالماً.

شبهة والرد عليها:

لما قدمت الدورية على رسول الله ﷺ قال: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»[2]، غير أن قريشاً انتهزت تلك الحادثة المخالِفة لتقاليد العرب للدعاية ضد المسلمين، حتى نزل الوحي حاسماً ذلك، فقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله من طرف قريش، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام وقريش هي

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم: ٨٣/٢ ـ ٨٥.

(٢) المرجع نفسه: ٢٧٦/١.

التي لم تُقَصّرْ يوماً في التفنن في تعذيبهم وأذاهم مدة ثلاث عشرة سنة، حتى قررت أخيراً قتل نبيهم واستئصالهم وسلب أموالهم؟

ثم أوضح الله عزَّ وجلَّ أن المشركين ماضون في خطتهم وهي السحق النهائي للمسلمين ودينهم، حتى ولو فروا إلى مكان بعيد، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثم حذّر الله تعالى المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الطاغية ـ التي أخرجتهم من بيوتهم وقررت ملاحقتهم إلى أن تزيلهم ـ والتفريط في دينهم الذي شرّفهم الله به، فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

درس لم تستفد منه قريش:

لقد كان في سرية عبدالله بن جحش درس واضح لقريش، حيث ظهرت لهم مراقبة المسلمين لحركاتهم التجارية، واتضحت أمامهم قوتهم بوصولهم قريباً منهم فقتلوا واحداً منهم وأسروا رجلين ورجعوا سالمين غانمين.

لو وعت قريش هذا الدرس لكان من الخير لها أن تعقد مصالحة مع المسلمين، كما فعلت جهينة وبنو ضمرة، لكن قريشاً لم تفق من غيها وازدادت طغياناً وجبروتاً فصمم صناديدها على إبادة المسلمين، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر.

أمام هذا الإصرار العجيب والعزم القاطع من طرف قريش على دفن المسلمين فرض الله تعالى القتال على المسلمين لحماية أنفسهم وعقيدتهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].



معركة بدر

سببها:

علم المسلمون بعودة قافلة تجارية لقريش من الشام، يحرسها بين ثلاثين وأربعين رجلاً بقيادة أبي سفيان، فندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: **«هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها[1]»[2]**، ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة وهم يحسبون أن الأمر لن يعدو ما ألفوه من الدوريات الماضية، ولم ينكر على أحد تخلفه.

وفهم الصحابة من قول النبيّ ﷺ السابق أنهم في حال حصولهم على ما تحمله القافلة من خيرات، إنما هو استرجاع لأموالهم التي استولت عليها قريش ظلماً وعدواناً حين هاجر المسلمون إلى المدينة.

وكانت الحالة بين المسلمين وقريش حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو مباحة.

ومن المؤكد أن المسلمين لما خرجوا من المدينة لم يكن في نيتهم القتال وإنما قصدوا القافلة، ولم يدر بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم

---

(١) ينفلكموها: يجعلكم تغنموها.

(٢) سيرة ابن هشام: ٦١/٢.

من أخطر أيام الإسلام، ولو علموا أنهم سيواجهون قوات قريش وأحلافها لاتخذوا أهبتهم كاملة ولما تأخر منهم أحد، قال كعب بن مالك ﷺ: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة بدر، ولم يعاتب النبيّ ﷺ أحداً تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم ميعاد»[1].

ولذلك كانت عدتهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً.

حوادث أثناء المسير إلى بدر:

حدثت مواقف ذات دلالات مهمة أثناء تحرك المسلمين إلى بدر منها:

١ ـ رحمة النبيّ ﷺ بالصغار:

بعد خروج الصحابة من المدينة استعرض النبيّ ﷺ مَن خرج معه، فوجد البراء بن عازب وعبدالله بن عمر، فأشفق عليهما لصغرهما وردّهما لعدم قدرتهما على تحمّل متاعب السفر وبأس القتال مع الكبار[2]، كيف لا وهو أرحم الناس وأشفقهم على الأطفال، عن أبي هريرة ﷺ قال: «قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لَي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: **«مَن لا يَرحم لا يُرحم»**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، رقم (٣٧٣٥): ١٤٥٥/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩): ٢١٢١/٤.

(٢) تأمل في سبق النبيّ للقوانين التي ما توصلت إليها الإنسانية إلا في عصرنا الحديث، تلك التي تمنع تجنيد الصغار في الحروب.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٦٥١): ٢٢٣٥/٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته بالعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٨): ١٨٠٨/٤.

٢ ـ الثقة المطلقة في أن النصر من عند الله:

التحق أحد المشركين بالمسلمين راغباً في القتال معهم، فردّه النبيّ ﷺ، فكرر الرجل فرفض الرسول حتى أسلم الرجل والتحق بالمسلمين، عن عائشة ؓ قالت: «خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله ﷺ: **«تؤمن بالله ورسوله»**. قال: لا. قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**. قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبيّ ﷺ كما قال أول مرة قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**، قالت: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة: **«تؤمن بالله ورسوله»**. قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: **«فانطلق»**»[١].

مع قلة عدد المسلمين وعدتهم أمام كثرة المشركين، لم يرض النبيّ ﷺ أن يستعين بغير مسلم[٢]، وفي ذلك دليل ساطع على أن رجال المبادئ لا تغيّرهم المصالح الذاتية الآنية حتى في أحلك الظروف، وفي ذلك أيضاً دليل قاطع على يقين النبيّ ﷺ في أن النصر بيد الله عزَّ وجلَّ يمنحه لمن يشاء متى يشاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ٤، ٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، رقم (١٨١٧): ١٤٤٩/٣ ـ ١٤٥٠.

(٢) ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في القتال، وذهب الإمام الشافعي إلى التفصيل: إذا رأى الإمام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به جاز، وإلا فلا. والمسألة داخلة ضمن السياسة الشرعية. انظر: فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢٤٣.

قارن موقف النبيّ ﷺ هذا، بما تفعله الدول المتحضرة اليوم من استئجار المرتزقة للقيام بانقلابات عسكرية أو احتلال دول أخرى وقهر شعوبها أو تثبيت للدكتاتوريات.

٣ ـ تواضع النبيّ ﷺ ومشاركته أصحابه في الصعاب:

عن عبدالله بن مسعود قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ـ أي: يتعاقبون ـ وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ»، قال: «وكانت عقبة رسول الله ﷺ، فقالا له: نحن نمشي عنك ـ ليظل راكباً ـ فقال: **«ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»**»[1].

بلغ من تواضعه ﷺ أنه لا يتميز عن أصحابه في شيء، وبلغ من إنصافه ﷺ أنه يطبق العدل على نفسه قبل غيره، وأنه يعلم الناس بأفعاله وليس بأقواله فقط، ليجعل بذلك الأخلاق الإسلامية حياة ملموسة في واقع الناس.

أين قادة الدنيا وسادتها الذين تقوم على تلبية طلباتهم جيوش من الحرس والخدم، من أخلاق خير خلق الله ﷺ؟ ولقد صدق وصف الله له حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

إصرار قريش على قتال المسلمين:

واصل المسلمون سيرهم بحثاً عن القافلة، غير أن أبا سفيان كان حذراً جداً فبث عيونه يتحسس أخبار المسلمين، وعلم فعلاً ملاحقتهم له، وأن قافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش حتى يسارعوا إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم (٣٩٠١): ١/٤١١، وابن حبان في صحيحه، رقم (٤٧٣٣): ١١/٣٥، والحاكم في المستدرك، رقم (٢٤٥٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»: ٢/١٠٠.

استنقاذ أموالهم، وغيّر طريق القافلة واتجه نحو ساحل البحر.

واستطاع (ضمضم) هذا إزعاج مكة قاطبة، فتجهز الناس جميعاً وجاءت قريش بحدها وحديدها وحشدوا مَن حولهم من قبائل العرب، وقد بلغت قوتهم حوالي ألف رجل، ومائتا فرس، وعدداً كبيراً من الإبل.

أفلت أبو سفيان من قبضة المسلمين، وعندما أمن على سلامة القافلة أرسل إلى قريش برسالة أخبرهم فيها بنجاة القافلة وطلب منهم العودة إلى مكة، ولكن أبا جهل أصر على المضي وقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً».

واستجابت الأغلبية لرأي أبي جهل فواصلت زحفها حتى نزلت قريباً من بدر، وواصل المسلمون سيرهم بحثاً عن القافلة حتى نزلوا من الناحية المقابلة قريباً من بدر، ويفصل بين الفريقين كثيب كبير.

أهداف الطرفين:

المسلمون:

أ ـ الاستيلاء على القافلة التجارية.

ب ـ تدعيم هيبتهم عند القبائل حتى لا يتعرض إليهم أحد فيتركون لهم حرية نشر الدعوة بالطرق السلمية.

المشركون:

أ ـ حماية القافلة التجارية القادمة من الشام.

ب ـ عند إفلات القافلة تغلب رأي القائلين بالقتال للثأر من المسلمين، والتمتع بالشهوات، وإظهار سطوة قريش[1].

شتان بين أهداف وأهداف: بين من خرج يسترجع جزءاً من ماله الذي أُخذ منه ظلماً وعدواناً بعدما هُجّر من وطنه، وبين من استولى على مال غيره بالباطل ولم يقف عند هذا الحد، بل راح يجمع قوته ويحشد حلفاءه لكتم أنفاس المظلوم ودسه في التراب!

ما أشبه الليلة بالبارحة!

تطبيق مبدأ الشورى:

علم النبيّ ﷺ بخبر نجاة القافلة ومسير جيش قريش إلى المسلمين، فاستشار أصحابه في الأمر، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم للمواجهة المسلحة، حيث أنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

إذا استعرضنا حياته ﷺ وجدنا أنه كان يلتزم مبدأ الشورى في كل أمر لا نص فيه، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية، وعليه فمبدأ الشورى أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله[2].

---

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب: ص٦٩.

(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٢١٨ ـ ٢١٩.

رجال فوق العادة:

لقد انكشف وجه الجد في الأمر، وسرعان ما تخلص مَن تردد منهم من تردده، وأقبل الجميع يستعد للموقف الحاسم، وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

هؤلاء القادة الذين تكلموا كلهم من المهاجرين، وقد اطمأن النبيّ ﷺ إلى موقفهم ولكنه أراد أن يعرف موقف الأنصار، فظل ينظر إلى القوم ويقول: **«أشيروا عليّ أيها الناس»**، فقال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله». قال: **«أجل»**. فقال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك».

لقد أحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي الأنصار، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن نصوص المعاهدة التي تربطهم به هي نصرتهم له داخل المدينة كما جاء ذلك في بيعة العقبة، والمعركة الآن بعيدة عن المدينة، فهل سيقاتلون معه أم يلتزمون بنود المعاهدة؟

«ولدى التأمل فيما أجاب به سعد بن معاذ، نعلم أن المبايعة التي ارتبط بها الأنصار مع رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى... إنما وقّعوا بذلك تحت صك عظيم تضمّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

﴿ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١][١].

صدق فضيلة الشيخ محمد الغزالي حين قال: «إن المعجزة الكبرى لمحمد بن عبدالله ﷺ هي تربيته لهذا الجيل».

نعم، إنها لوحة زيتية وحيدة في البشرية رسمها تلاميذ محمد ﷺ للشجاعة والوفاء!

الوحي يكشف أستار الغيب:

سُرَّ النبيّ ﷺ بقول سعد، وقال: «**سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

وفي رواية مسلم، قال رسول ﷺ: «**هذا مصرع فلان**». قال: «**ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا**»، قال: «فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله»[٢].

قبل المعركة:

١ ـ الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف:

قام الرسول ﷺ ومعه أبو بكر ﷺ يستطلعان فلقيا شيخاً فسأله النبيّ ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه ـ سأل عن الفريقين زيادة في التكتم ـ ولكن الشيخ قال: «لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟»، فقال له النبيّ ﷺ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**»، فقال: «أو ذاك بذلك؟»، قال: «**نعم**». قال الشيخ: «فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان

---

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٢٢٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، رقم (١٧٧٩): ١٤٠٤/٣.

صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا» ـ للمكان الذي به جيش مكة ـ ثم قال الشيخ: «لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟»، فقال رسول الله ﷺ: **«نحن من ماء»**. ثم انصرف عِنه، وبقي الشيخ يقول: «**ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟**»[1].

علم الرسول ﷺ من الشيخ أن قريشاً قريبة منه، ولم يخبره ﷺ عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين، وقد تحلى النبيّ ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها»[2]، وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

أ ـ سؤاله ﷺ الشيخ عن محمد وقريش متبعاً أسلوب الكتمان.

ب ـ توريته ﷺ بقوله: **«نحن من ماء»**، وهو جواب يقتضيه المقام، وفي الوقت نفسه فقد صدق الصادق ﷺ في قوله لأن الله خلق الإنسان من ماء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧، ٨].

والتربية الأمنية في المنهاج النبوي استغرقت كلاً من الفترة المكية والمدنية، وخصوصاً في غزوات الرسول ﷺ، وقد أرشد القرآن الكريم إلى أهمية هذا المبدأ فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم (٢٧٨٧): ٣/١٠٧٨.

٢ ـ الاستنطاق عن طريق الحوار:

في مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر أرسل النبيّ ﷺ دورية استطلاع أخرى، فجاءته بغلامين يستقيان لقريش، فقال لهما النبيّ ﷺ: «**أخبراني عن قريش**». فقالا: «هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى». فقال لهما: «**كم القوم؟**»، قالا: «كثير». قال: «**ما عدتهم؟**»، قالا: «لا ندري». قال ﷺ: «**كم ينحرون كل يوم؟**»، قالا: «يوماً تسعاً ويوماً عشراً». فقال رسول الله ﷺ: «**القوم ما بين التسعمائة والألف**». ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**»، فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف وآخرين، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»[1].

ونلحظ في هذا الحوار ما يلي:

ـ مدى ذكاء النبيّ ﷺ، وذلك واضح في طريقة طرحه للأسئلة واستنتاجاته.

ـ معاملته ﷺ للغلامين معاملة عادية تماماً، فلم يستعمل معهما أية وسيلة من وسائل العنف لاستنطاقهما، وإنما الذي دار بينهما مجرد حوار، كيف لا وهو الذي قال له ربه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣ ـ اهتمام المسلم بمهمات الأمور:

أسرع المسلمون السير وعسكروا في أدنى ماء من بدر، فجاء الحباب بن المنذر إلى النبيّ ﷺ فقال: «أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قال:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٢٩.

«**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بالمنزل، امض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون». فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»[1].

ونستفيد من هذا الموقف ما يلي:

- الحرية التي ربى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد.

- عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض خطته، لكن تم ذلك بعدما استوضح هل هو وحي أم اجتهاد.

- قارن بين اهتمام هذا الصحابي الجليل وبين ما قاله أبو جهل: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان...»، لتجد أن الصحابي كان مهتماً بأسباب النصر، بينما كان أبو جهل مهتماً بشهواته.

وكذلك الأمة إن سخّرت إمكاناتها البشرية والمادية والمعنوية في سبيل عظائم الأمور أمة منصورة بإذن الله، وإن هي أهدرت هذه الإمكانات في سفساف الأشياء فلها مؤخرة الترتيب عن جدارة.

- إن هذه المعادن النفيسة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة.

- وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتَبَنّي الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٦٦/٢ (عن فقه السيرة للغزالي).

٤ ـ أهمية التضرّع لله تعالى:

بُني للنبيّ ﷺ عريش يكون فيه بمأمن، وقضى ليله مستغرقاً في الدعاء مستغيثاً بأمداد الرحمٰن، فعن عمر بن الخطاب أن النبيّ ﷺ استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللّهم أنجز لي ما وعدتني. اللّهم آت ما وعدتني. اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: «يا نبيّ الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩][1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ يوم بدر: «**اللّهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللّهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم**»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: «حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك» ـ وهو في الدرع ـ فخرج وهو يقول: «﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴿٤٥﴾ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴿٤٦﴾﴾» [القمر: ٤٥، ٤٦][2].

وراح ﷺ يجأر إلى الله تعالى ويقول: «**اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك. اللّهم فنصرك الذي وعدتني. اللّهم أحنهم الغداة**»، وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويخلصون له في الضراعة[3].

لماذا كل هذه الضراعة، مع أنه ﷺ مطمئن لنصر الله لدرجة أنه حدد مصارع بعض المشركين؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم (١٧٦٣): ١٣٨٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبيّ ﷺ، رقم (٢٧٥٨): ١٠٦٧/٣.

(٣) البداية والنهاية: ٢٦٧/٣.

والجواب: أن إيمان النبيّ ﷺ بالنصر، إنما كان تصديقاً منه للوعد الذي وعده الله به، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد.

أما الاستغراق في التضرع والدعاء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خُلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر، فما النصر ـ مهما توفرت أسبابه ـ إلا من عند الله وبتوفيقه، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بواسطة ما استجابة الدعاء كما استأهل ذلك بواسطة ذل العبودية بين يدي الله تعالى.

هذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النبيّ ﷺ، هي الثمن لذلك النصر الإلهي العظيم.

ثم قارن بين هذه العبودية وبين ذلك الطغيان والتجبر الذي تجلى في موقف أبي جهل حينما قال: «... وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا».

وَقِفْ عند نتائج كل من الموقفين: لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى عزةً ومجداً خضع لهما جبين الدنيا بأسرها، وكانت نتيجة الطغيان والجبروت قبراً من الهوان أقيم لأربابهما.

وتلك هي سنّة الله في الكون كلما تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين[1].

٥ ـ الأخذ بالأسباب:

لم يكتف النبيّ ﷺ بالدعاء فحسب، بل أخذ بالأسباب المادية والمعنوية قدر استطاعته ولم يقصر في شيء:

أ ـ اخترع الرسول ﷺ خطة في المعركة لم تكن معروفة من قبل، حيث قاتل بنظام الصفوف، وفي ذلك دلالة على وحدة المسلمين وحسن

---

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

الترتيب والتنظيم عندهم، في الوقت الذي كانت العرب تقاتل بأسلوب الكر والفر.

ب ـ استفاد النبيّ ﷺ من كل الظروف الطبيعية أثناء القتال، حيث نزل إلى ميدان القتال قبل قريش وجعل الشمس خلفه، كما أنه ﷺ كان قد استولى على منابع الماء.

ج ـ قام النبيّ ﷺ بتحريض أصحابه على القتال امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥]، فعن أنس بن مالك قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»**، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»**[1]، وعن ابن عباس ﷺ أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر: **«هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»**[2]، وقال لأصحابه أيضاً: **«والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»**[3].

وقد أثرت هذه التعبئة في نفوس الصحابة أيما تأثير!

٦ ـ العدل المطلق والحب المطلق:

قبل انطلاق المعركة قام النبيّ ﷺ بنفسه يعدل الصفوف ويسويها، وكان بيده سهم لا ريش له، فرأى رجلاً اسمه: سواد بن غزية وقد خرج

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠١): ١٥١٠/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٣٧٧٣): ١٤٦٨/٤.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٣٩/١.

من الصف فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني[1]، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟»، قال: «يا رسول الله، حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك»، فدعا له رسول الله بخير[2].

فليتعلم المسلمون من الإسلام: الحرص على النظام، والعدل المطلق، والمحبة المطلقة للنبيّ ﷺ.

المعركة: لا عدوان إلا على الظالمين:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

تمت على ثلاث مراحل متتالية، في كل مرحلة كان المشركون هم الذين يهاجمون والمسلمون يدافعون:

١ ـ أول وقود المعركة:

أول من بدأ بتحدي المسلمين والاعتداء عليهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي ـ وكان رجلاً شرساً سيِّئ الخلق ـ خرج قائلاً: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه». فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ﷺ وقتله.

٢ ـ المبارزة:

بعد هذا خرج ثلاثة من أشداء فرسان قريش، وهم عتبة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، فنادوا: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فخرج عبيدة بن الحارث

---

(١) أقدني، أي: مكّني من القَوَد، وهو القصاص.

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية: ص٢٣٦.

وحمزة وعلي، فأما حمزة فقتل شيبة، وقتل علي الوليد، وأما عبيدة وعتبة فقد أثخن كلاً صاحبه، فكر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، فمات بعد أربعة أو خمسة أيام.

وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

٣ ـ الهجوم العام:

استشاط المشركون غضباً بسبب فقدهم لأربعة من خيرة فرسانهم وقادتهم، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

وأما المسلمون فقد تلقوا هجمات المشركين المتوالية وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، يتلقون من النبيّ ﷺ تعليمات دقيقة موقفاً بموقف، وكانوا ينفذونها بصرامة وشجاعة نادرة، وأيّد الله جند الحق بملائكته حتى ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وكان النصر التاريخي للمسلمين، وتحقق قول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

وانهزمت قريش، وذلك قول الله في كتابه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال: ١٢ ـ ١٤].

أسفرت المعركة بين الحق والباطل على فتح مبين للمسلمين، وقد استشهد منهم أربعة عشر رجلاً، أما المشركون فقد لحقتهم هزيمة منكرة، قتل منهم سبعون وأسر سبعون. والعبرة العامة من معركة بدر أن سنّة الله اقتضت بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وفقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار، ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين أن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للنصر.

ومما تتعلمه الإنسانية كلها من هذه المعركة أن الظلم مرتعه وخيم، وأن البطر يجر في أعقابه الخزي والعار.

نبيّ المرحمة ونبيّ الملحمة ﷺ:

وفي إخراج الرسول ﷺ ثلاثة من أقاربه للمبارزة، دلالة على صدقه في دعوته، وأنه لا يقدم للخطر الأجانب ويؤخر عنه أهله وعشيرته، بل إن الذي زاد أبطال محمد شجاعةً وإقداماً أن رأوه ينزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال.

من روائع الإيمان:

تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ، ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره!

وشارك في هذه المعركة ولدا عفراء ـ وهما حديثا السن ـ فسألا أثناء المعركة عبدالرحمٰن بن عوف عن أبي جهل، فأشار لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه[1].

في أعقاب بدر:

رحمة ووفاء:

نهى النبيّ ﷺ عن قتل مجموعة من الرجال، لأنهم كانوا مسالمين للمسلمين في مكة، وقد جاؤوا مع قريش إلى بدر تحت الإكراه، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ: «**إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن**

(١) متفق عليه عن أنس، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٧٤٥): ١٤٥٨/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل أبي جهل، رقم (١٨٠٠): ١٤٢٤/٣.

أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً». قال: فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف»، فبلغت رسول الله ﷺ فجعل يقول لعمر بن الخطاب: «**يا أبا حفص، أما تسمع إلى قول أبي حذيفة؟ يقول: أضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟**»، فقال عمر: «يا رسول الله، دعني فلأضربن عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». قال عمر: «والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص». قال: «فكان أبو حذيفة يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة»». فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال: «وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب، فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار من بني عدي، فقال المجذر بن ذياد لأبي البختري: «إن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلك»، ومع أبي البختري زميل له وهو جنادة بن مليحة بن زهير بن الحارث بن أسد، وجنادة رجل من بني ليث، قال: «وزميلي؟»، فقال المجذر: «لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك». قال: «لا والله، إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً لا تحدث عني نساء قريش من أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة». فاقتتلا فاضطر المجذر بن ذياد إلى قتله».

قال: «ثم أتى المجذر بن ذياد رسول الله ﷺ فقال: «والذي بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا القتال فقاتلته فقتلته»[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٤/٢، وجاء البعض من هذه القصة في فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، حديث رقم (٣٧٩٣): ٣٢٢/٧.

ولا ريب أن في نهي النبيّ ﷺ عن قتل هؤلاء ـ رغم خروجهم مع قريش يحملون السلاحِ ـ رحمةً ووفاءً كبيرين، فانظر كيف عامل بالسلم من سالمه ولو جاء حاملاً السلاح لما علم بأنه إنما حمله إكراهاً، لتعلم بأنه لا كراهية في قلب المسلم لأحد بسبب دينه ومعتقده، فهؤلاء ليسوا بمسلمين، لكن نهى النبيّ ﷺ عن قتلهِم لأنهم لم يؤذوا المسلمين.

إكرام الميت[١]:

أُلقيت جثث المشركين الذين صُرعوا في هذه الغزوة في قليب بدر، وقام رسول الله ﷺ على ضفة البئر «فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **«يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»**، فقال عمر: «يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟»، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**[٢].

وهذا العمل الذي قام به المسلمون ـ دفن جثث قتلى العدو ـ يحمل في معانيه مدى احترام المسلم للإنسان حتى بعد موته، ورغم العناء الكبير الذي تحمله المسلمون في هذه المعركة غير المتكافئة، ومع ذلك قاموا بدفن جثث القتلى من أعدائهم، ولم يتركوهم عرضة للتعفن أو للوحوش تنهشهم وتعبث بهم، وذلك نابع من تقدير المسلم لكرامة الإنسان حياً وميتاً صديقاً أو عدواً في حالة السلم أو الحرب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) راجع: قانون الحرب والحياد من القانون الدولي.

الواجبات نحو القتلى: «يُفرض على الفريقين المتحاربين معاملة جثث القتلى بالاحترام اللازم وعدم تشويهها، ويجب دفنها...». انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب: ص٨٨ (الهامش).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي طلحة، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، رقم (٣٧٥٧): ١٤٦١/٤، ومسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٧٤): ٢٢٠٣/٤.

الوصية بإكرام الأسرى:

أسر المسلمون في هذه المعركة سبعين مقاتلاً، ولما عادوا بهم إلى المدينة قسّمهم النبيّ ﷺ على أصحابه وأوصى بهم خيراً، فكان الصحابة يطعمون أسراهم أفضل من طعامهم عملاً بوصية رسول الله ﷺ، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: «كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: **«استوصوا بالأسارى خيراً»**، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُرّ لوصية رسول الله ﷺ»[1].

فلتتعلم البشرية من خير البشرية ﷺ كيف ينبغي أن تتعامل مع الأسير.

وهذا أبو العاص بن الربيع يقول: «كنت في رهط من الأنصار ـ جزاهم الله خيراً ـ كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليّ».

وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: «وكانوا يحملوننا ويمشون»[2].

كان هذا الخلق الرحيم قد وضع أساسه القرآن ورباهم عليه النبيّ ﷺ، فأثّر في مجموعة من أشراف الأسرى وأسرعوا إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز بن عمير والسائب بن عبيد، وعاد الآخرون ـ بعد أن فدوا أنفسهم ـ إلى بلادهم يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير.

إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، رقم (٤٠٩): ١/٢٥٠.
(٢) أي: يحملونهم على ظهور دوابهم بينما هم يمشون على أرجلهم.
(٣) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، علي محمد الصلابي: ٢/٥٩.

الحكم على الأسرى:

لما بلغ النبيّ ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسرى، فقال أبو بكر ﷺ: «يا نبيّ الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً».

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**»، قال: «قلت: والله، ما أرى ما رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنني من فلان ـ قريباً لعمر ـ فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء». فلما أن كان من الغد قال عمر: «غدوت إلى النبيّ ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما»، قال: «فقال النبيّ ﷺ: «**للذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة**»»[1].

والرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله ﷺ فيه الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى، والتعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يصلحوا بها شؤون دنياهم.

التعليم مقابل الفداء:

عن ابن عباس ﷺ قال: «كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[2]، وكان كل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب، رقم (٢٠٨): ١/٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه: ٦/٤٩٧.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (٢٦٢١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم=

وهذا يدل بوضوح على نظرة الإسلام إلى العلم والمعرفة، وحرصه على إزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وبهذا العمل الجليل يعتبر النبيّ ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام[١].

المنّ[٢] على بعض الأسرى:

كان أبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحي فقيراً ذا بنات، فقال: «يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن عليّ»، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه عهداً ألا يظاهر عليه أحداً[٣].

ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسرى؛ منهم: المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، ومنّ على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلي سبيل زينب، فخلاها فهاجرت.

تنوع معاملة الأسرى[٤]:

كانت معاملة النبيّ ﷺ للأسرى تحفها الرحمة والعدل، ولذلك تعددت أساليبه في تعامله ﷺ مع الأسرى، فبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض

= يخرجاه»: ١٥٢/٢، والبيهقي في سننه الكبرى، باب أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية به، رقم (١١٤٦٠): ١٢٤/٦.

(١) انظر: التربية القيادية: ٧٤/٣، السيرة النبوية لأبي شهبة: ١٦٤/٢ ـ ١٦٥.

(٢) المن: هو إطلاق الأسير دون مقابل.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ٣١٣/٣.

(٤) راجع: قانون الحرب والحياد من القانون الدولي.
الواجبات نحو الأسرى: يجب معاملة الأسير طبقاً لمبادئ الإنسانية وحمايته من الاعتداء والإهانة... وتنتهي حالة الأسير بإطلاق سراح الأسير بلا قيد أو شرط، أو بعد إعطائه كلمة الشرف، كما تنتهي بتبادل الأسير مع زميل له بجيش العدو أو الافتداء بالمال. انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب: ص٨٧ (الهامش).

الآخر منّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل إطلاق سراحهم، وهناك من قتله.

والذين قتلهم النبيّ ﷺ هم الطغمة من كبراء مكة، لهم ماض شنيع في إيذاء الله ورسوله، وهم الذين ساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ما كان لها من داع؛ إنهم مجرمو حرب ـ بالاصطلاح الحديث ـ لا أسرى حرب.

وهناك نصوص توصي برعاية الأسرى، وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم، وهذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة.

أما الذين تاجروا بالحروب، لإشباع مطامعهم الخاصة، فيجب استئصال شأفتهم[1].

حرمة التمثيل بالأسير:

ممن وقع في الأسر سهيل بن عمرو وكان خطيباً ممتازاً، فقال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن آخر. فقال رسول الله ﷺ: **«لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً»**، ثم قال رسول الله ﷺ لعمر: **«إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه»**[2].

لقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب تشويه خلقة الإنسان، وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراساً لأمته في انتصاراتها على أعدائها[3].

تعامل النبيّ ﷺ مع من حاول اغتياله:

عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: «جلس عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان

---

(١) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣١١/٣.

(٣) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ٦٣/٢.

عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناءً وهماً بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى أصحاب بدر، فذكروا أصحاب القليب بمصابهم فقال: «والله إنْ في العيش خير بعدهم»، فقال عمير بن وهب: «صدقت والله، لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه وعيالي أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي فيهم علة: ابني عندهم أسير في أيديهم»».

قال: «فاغتنمها صفوان فقال: «عليّ دينك أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أسويهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم. قال عمير: أكتم عني شأني وشأنك». قال: «أفعل». ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسم ثم انطلق إلى المدينة.

فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر إلى عمير بن وهب قد أناخ راحلته بباب المسجد متوشح السيف، فقال: «هذا عمير بن وهب ما جاء إلا لشر هذا الذي حرش بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر»، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً بالسيف». قال: **«فأدخله»**.

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه: «أدخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا هذا عليه فإنه غير مأمون».

ثم دخل على رسول الله ﷺ به وعمر آخذ بحمالة سيفه، فقال: **«أرسله يا عمر، أدن يا عمير»**، فدنا فقال: «أنعموا صباحاً»، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: **«قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة»**. فقال: «أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهد بها»، قال: **«فما جاء بك؟»**، قال: «جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه»، قال: **«فما بال السيف في عنقك؟»**، قال: «قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً؟»، قال: **«أصدقني ما الذي جئت له؟»**، قال: «ما جئت إلا لهذا».

قال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش فقلت: لولا دين عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك**».

قال عمير: «أشهد أنكَ رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أنباك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق»، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «**فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره**».

ثم قال: «يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ولا أؤذيهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم»، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.

وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب قال لقريش: «أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر»، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير»[(1)].

وفي هذا الموقف يظهر بجلاء سمو أخلاق النبيّ ﷺ، فقد أحسن إلى عمير وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتله، بل أطلق ولده الأسير وقال لأصحابه: «**فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره**»، وذلك ما نص عليه القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ

---

(1) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب إخباره ﷺ بالمغيبات: ٨/٢٨٥ ـ ٢٨٧، والطبراني في المعجم الكبير، رقم (١١٨): ١٧/٥٨. وانظر: تاريخ الطبري: ٢/٤٥.

حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الوفاء بالعهد فريضة دينية: عن حذيفة رضي الله عنه قال: «ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ فأخذتنا كفار قريش، فقالوا: «إنكم تريدون محمداً»، فقلنا: «ما نريده إنما نريد المدينة»، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه: «لتصيرون إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ»، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم، فما ترى؟ فقال: **«نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»**، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدراً»[1].

«هذه صورة مشرقة في حرص النبيّ ﷺ لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرفيعة وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين»[2]، كيف لا والقرآن قد أمر المسلمين أن يوفوا بعهودهم، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

رسول السلام لا ينتقم لنفسه أبداً:

في غزوة ذي أمرّ تجمّعت قبيلتا ثعلبة ومحارب بقيادة دُعثور بن الحارث المحاربي يريدون الإغارة على المدينة، فخرج إليهم النبيّ ﷺ في أصحابه ففروا، وحدث أن أصاب المسلمين مطر كثير فابتلت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه، فقال: «يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟»، قال: **«الله»**، فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: **«مَن يمنعك مني؟»**، قال: «لا أحد».

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (٤٩٠٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقره الذهبي: ٣/٢٢٢.

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ٢/٨٢.

وأمام هذه المعجزة الباهرة قال الرجل: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ثم رجع إلى قومه يدعوهم للإسلام[1]، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

لم يعاقب النبيّ ﷺ هذا الذي أراد قتله ولم ينتقم لنفسه، بل ذهب يحاوره ويجعله يتأكد ـ بعد أن أخذ السيف ـ بأنه لا أحد يمكن أن يمنعه منه، وبعد ذلك تركه لضميره وعقله، فما كان منه إلا أن ركعت مشاعره لقوة الواحد القهار ونطق لسانه بشهادة الحق.

تلك أخلاقه ﷺ الدائمة، ومع جميع الناس قريبهم وبعيدهم سواء من المسلمين أو غيرهم، إنها ليست سلوكات موسمية أو مزاجية وإنما خصال ثابتة وسجايا حقيقية، فعن عائشة رضي الله عنها وهي زوجته وألصق الناس وأعرفهم به تقول: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله»[2].



(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر عند القائلة، رقم (٢٧٥٣): ٣/١٠٦٥، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، رقم (٨٤٣): ١/٥٧٦، والبداية والنهاية: ٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، رقم (٦٤٠٤): ٦/٢٤٩١.



غزوة بني قينقاع

بعد أن هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة، قام بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، فعقد رسول الله ﷺ مع اليهود معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال[1].

كان المسلمون حريصين كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة، فلم يأت منهم ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها.

ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة[2].

بل إن كعب بن الأشرف ـ من رجالات اليهود ـ أرسل القصائد في رثاء قتلى المشركين في بدر والمطالبة بثأرهم.

وحاول شاس بن قيس ـ وكان شيخاً يهودياً ـ أن يشعل نار الحرب بين الأوس والخزرج، وتواعد الطرفان وتنادوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف بين قلوبكم؟**».

---

(١) انظر: بنود هذه المعاهدة في سيرة ابن هشام: ١/٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٢٧٧.

فبكوا وعانق الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله كيد عدو الله شاس بن قيس[1].

ثم حاول اليهود أن يحقروا من شأن النصر الذي حظي به الإسلام.

أذى اليهود يقابله المسلمون بالصبر:

ومع ذلك فقد قابل المسلمون هذا الأذى كله بالصبر، بل بالصفح والعفو، روى أسامة بن زيد قال: «كان النبيّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكان النبيّ ﷺ يتأول العفو الذي أمره الله به حتى أذن الله فيهم»[2].

بدء الصراع بين اليهود والمسلمين:

لم تُحَدِّثِ المسلمين أنفسُهم بنقض عهد اليهود، ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة، بل على العكس، توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم على الوثنية وتدعيم عقيدة التوحيد، بيد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن فذهبوا يعينون عُبَّاد الأوثان على عُبَّاد الله الواحد، ولو أنهم كذّبوا بمحمد ﷺ كما كذبوا بعيسى من قبل، واعتقدوا أن ما وراء توراتهم باطل، واكتفوا بأداء عبادتهم في بيعهم، لتركهم المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ١/٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾، رقم (٤٢٩٠): ٤/١٦٦٣.

لكن اليهود توسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم للمسلمين، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم، ولما تفاقم بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ فوعظهم وحذرهم مغبة البغي والعدوان، غير أنهم ازدادوا في شرهم:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً**». قالوا: «يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣][١].

كان معنى ما أجاب به اليهود هو الإعلان السافر للحرب، ولكن كظم المسلمون غيظهم وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الأيام[٢].

سعي اليهود إلى حتفهم وسبب حصارهم:

عن أبي عون قال: «كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب[٣] لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، رقم (٣٠٠١): ٣/١٥٤، والبيهقي في سننه الكبرى: ٩/١٨٣.

(٢) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٢٥٧ ـ ٢٥٩، الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) ما يجلب إلى السوق ليباع.

فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع»[1].

الحصار ثم الجلاء:

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها، فحاصرهم النبيّ ﷺ خمسة عشر يوماً، فاستسلموا، ولما تمكّن منهم ﷺ افتكّهم منه رأس المنافقين وحليف اليهود عبدالله بن أبيّ بن سلول بطريقة غاية في سوء الأدب:

قال: «يا محمد، أحسن في مواليّ» - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: «يا محمد، أحسن في مواليّ»، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«أرسلني»**، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً[2]، ثم قال: **«ويحك أرسلني»**، قال: «لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ: أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر»، فقال رسول الله ﷺ: **«هم لك»**[3].

فرحلوا إلى «أذرعات» بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم.

كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار، ولا يخونوا العهود، ويبقوا في المدينة آمنين، أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها، أما أن يصطدم الإسلام بالشرك فينظم اليهود بعواطفهم وألسنتهم ودعاياتهم ضد الإسلام والمسلمين، فهذا ما لا يستساغ[4].

شبهة والرد عليها:

أصحيح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لا دينياً؟ وأن الانفراد بالسلطان في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام؟

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/٣١٤.
(٢) ظللاً، جمع ظلة: وهي السحابة، استعارها لتغيير الوجه عند الغضب.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/٣١٥.
(٤) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٢٥٨ - ٢٦٠.

لقد رأينا المسلمين في مكة يحزنون لانهزام الروم أمام الفرس، ذلك هو الشعور الطبيعي لأن المسلمين أصحاب كتاب والنصارى أيضاً أصحاب كتاب فهم أقرب إلى المسلمين من عبدة النار.

وكان مشركو مكة منطقيين مع أنفسهم حين فرحوا بانتصار الفرس، وعدّوه انتصاراً للوثنية على أديان السماء جميعاً.

فما معنى أن يغضب اليهود وهم أصحاب كتاب من انتصار الإسلام على الشرك؟

والجواب: أن اليهود انقطعت صلاتهم بالدين الذي جاء به موسى عليه السلام، وأصبحت شهواتهم ومصالحهم الذاتية مقدمة على كل شيء.

وطوائف اليهود الذين عاشوا بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لمطامعهم الاقتصادية، فلما توهموا أن هذه المطامع مهددة بالزوال، ظهر الكفر المخبوء فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين[1].

سبب قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاءً لرسول الله ﷺ، وكان يهجو بشعره النبيّ ﷺ والمسلمين، ويحرض عليهم، ويمدح عدوّهم، ولم يرض بهذا القدر حتى سافر إلى قريش وأنشد الأشعار يبكي فيها قتلاهم في بدر، ودعاهم إلى حرب المسلمين.

سأله أبو سفيان والمشركون: «أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟»، فقال: «أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل»، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

ثم رجع إلى المدينة وقد أجمع رأي المشركين على قتال المسلمين، وأخذ يشبب في أشعاره بزوجات النبيّ ﷺ وبنساء الصحابة.

---

(١) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٢٦٠ ـ ٢٦٢.

وحينئذٍ قال رسول الله ﷺ: «**مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله**»، فانتدب له محمد بن مسلمة في مجموعة من أصحابه فقتلوه[1].

إن ما فعله كعب بن الأشرف يعتبر خيانة عظمى يستحق على كل جريمة من جرائمه المنكرة الكثيرة عقوبة الإعدام، فكيف بها وقد اجتمعت هذه الخيانات والجرائم كلها فيَ هذا الشرير؟

إنه لصبر جميل وطويل ذاك الذي صبره النبيّ ﷺ نحو هذا الخائن لدينه ووطنه وميثاقه.

كل نفس بما كسبت رهينة:

لم يؤاخذ النبيّ ﷺ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف، واكتفى بقتله جزاء غدره، بل جاء يهود بني النضير يجددون المعاهدة مع النبيّ ﷺ فقام بتجديدها معهم.

ولو خطر بنفوس المسلمين إلحاق السوء باليهود لكانت هذه فرصتهم للخلاص منهم، ولكن المسلم لا يضمر للغير إلا الخير، كيف لا وهو المأمور بدعوة الآخرين إلى ما جاء به الإسلام من خيري الدنيا والآخرة.



(١) حديث قصة قتل كعب بن الأشرف متفق عليه عن جابر بن عبدالله أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، رقم (٣٨١١): ١٤٨١/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، رقم (١٨٠١): ١٤٢٥/٣.



غزوة أحد

أسباب الغزوة:

أسباب هذه الغزوة متعددة؛ أهمها: السبب الديني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وهذه الأسباب وغيرها دفعت بقريش لهذه المعركة التي خرجوا فيها من مكة إلى المدينة للقضاء على المسلمين في عقر دارهم.

١ ـ **السبب الديني**: من أهداف قريش الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة الرسول ﷺ، والقضاء على الدعوة الإسلامية، وقد أخبر الله تعالى بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

٢ ـ **السبب الاجتماعي**: كان لهزيمة بدر وقعاً كبيراً من العار الذي لحق بقريش، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه المهانة، فشرعوا في جمع المال والرجال لحرب المسلمين.

٣ ـ **السبب الاقتصادي**: فرضت حركة السرايا التي قام بها المسلمون حصاراً اقتصادياً على قريش حيث كان اقتصادهم قائماً على رحلتي الصيف والشتاء، وذلك حين أصبحت الطرق التجارية تحت رقابة المسلمين، فاختاروا فك هذا الحصار بالقوة بدل إجراء معاهدة صلح مع المسلمين.

٤ ـ **السبب السياسي**: بعد غزوة بدر أخذت سيادة قريش في الانهيار،

خصوصاً وأنها تعتبر زعيمة القبائل العربية، ولذلك كانت ترى بأنه لا بد من الحفاظ على زعامتها مهما كلفها ذلك من جهد ومال وضحايا[1].

هذه الأسباب وغيرها من الغرور والإصرار على الانتقام. . . إلخ، جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة.

موقف المسلمين موقف دفاعي:

هذه الأسباب السالفة الذكر كلها من ناحية قريش إذ هم الذين خرجوا من ديارهم متوجهين نحو المدينة لاجتثاث المسلمين ومحوهم من على وجه الأرض، ولم يعلم المسلمون بهم حتى فوجئوا بأنهم على مقربة من المدينة بعدما قطعوا مسافة حوالي خمسمائة كيلومتراً، وكان رأي النبيّ ﷺ أن يقاوم العدو داخل المدينة، يدافع فيها الرجال والنساء عن أنفسهم إلى آخر رمق، ورأى المتحمسون من الشباب وممن لم يحضر بدراً أن يخرجوا لملاقاة العدو، فنزل النبيّ ﷺ على رأي هؤلاء، وخرج لملاقاتهم في محيط المدينة.

الشورى مبدأ ثابت:

بعد أن جمع النبيّ ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش قريش جمع أصحابه، وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبيّ ﷺ البقاء في المدينة، بينما كان رأي الكثير الخروج لملاقاة العدو وألحوا عليه، فأمر النبيّ ﷺ بالخروج، وعندها شعر المتحمسون أنهم استكرهوه فتراجعوا عن رأيهم، فأبى النبيّ ﷺ طلبهم الأخير واستقر الرأي على الخروج من المدينة.

وهكذا نرى أنه ما من موقف لا نص فيه يستدعي تبادل الرأي إلا والنبيّ ﷺ يستشير أصحابه لا يتأخر عن ذلك أبداً مع أنه معصوم ويوحى إليه ﷺ، وما ذلك إلا ليعلمنا هذا المبدأ ويرسخه في نفوسنا وفي حياتنا،

---

(١) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ١/١٠٩ ـ ١١٠.

وبذلك يقضي على الاستبداد بالرأي وحب التسلط، ويربي أجيالاً تتشاور فيما بينها وتأخذ بالرأي الذي يعود على الأمة بالخير والمنفعة، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رحمة الصغار من أولى الاهتمامات:

عندما خرج النبيّ ﷺ لملاقاة جيش قريش الجرار، استعرض جيشه، فردّ من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال، وكان منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وغيره، وأجاز رافع بن خديج وسمرة بن جندب لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما.

وفي ذلك ما يدل بوضوح على شفقة النبيّ ﷺ على الصغار والرحمة بهم، وهو خلق دائم وليس مؤقتاً بوقت معين أو ظرف محدد، قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**»[(١)].

«ونستشف من هذا أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة، ويسعى للشهادة شيباً وشباناً، وحتى الصبيان يقبلون على الموت ببسالة ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد، أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة والترفع عن أمور الدنيا»[(٢)].

«سر هذا الإقدام على الموت من هؤلاء الأطفال، إنما هو الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلب، والذي ترتبت عليه محبة عارمة لرسول الله ﷺ. فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة، ظهر هذا الإقدام

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك، رقم (١٩١٩): ٣٢١/٤، وأبو داود في سننه، رقم (٤٩٤٣).

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ١١٨/٢ ـ ١١٩.

والاستبسال، وحيثما ضعف الإيمان وضعفت المحبة في القلب، انقلب الإقدام إحجاماً والاستبسال كلاً وتقاعساً»[1].

خيانة يقابلها صبر وحكمة:

خرج النبيّ ﷺ بألف مَقاتل لملاقاة جيش قريش وحلفائهم الذين هاجموا المدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، ولما كان بمقربة منهم يراهم ويرونه، تمرّد عبدالله بن أبي بن سلول المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر (ثلاثمائة مقاتل)، وبقي مع النبيّ ﷺ سبعمائة مقاتل في مواجهة ثلاثة آلاف من مقاتلي قريش وحلفائهم.

وكان هدفه من ذلك أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبيّ ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو وتعلو همته لرؤية هذا المنظر.

وكاد المنافق ينجح في تحقيق هدفه، فقد همت بنو حارثة وبنو سلمة أن تتراجعا لولا أن الله ثبّتهما، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وحاول عبدالله بن حرام تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتعللوا بأنهم لا يعرفون القتال.

ومع خطورة ما أقدم عليه هذا الرهط من المنافقين في شق الصف الإسلامي ومحاولة إضعافه، فقد قابل النبيّ ﷺ هذا الموقف العصيب بصبر وحكمة بالغة، حيث لم يعلق عليهم ولو بكلمة واحدة يعاتبهم فيها، ووكّل أمره كله لله تعالى.

وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

---

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٢٤٤.

مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧].

القيم ثابتة وليست نسبية:

قبل انطلاق المعركة أخذ النبيّ ﷺ ينفث روح الحماسة في أصحابه، عن أنس: «أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: **«مَن يأخذ مني هذا؟»**، فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: **«فمن يأخذه بحقه؟»**، قال: فأحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: «أنا آخذه بحقه»، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين»[1].

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت، فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: **«إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»**[2].

إن المشي بتبختر واختيال من الكبر، وذلك حرام بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، لكن هذه الحال ـ حال مواجهة العدو وجهاً لوجه ـ استثنائية، إذ الغاية من ذلك بعث الرعب في نفس العدو، فهي حرب نفسية، ومن ثم فهذه المشية جزء من المعركة.

والذي نلمسه هنا بإعجاب هو تنبيه النبيّ ﷺ على حرمة هذه المشية إلا في هذه الحال الاستثنائية، مع أنه ﷺ في وضع حرج وهو الاستعداد لبدء القتال، وكان بإمكانه أن يغض الطرف عن بعض التصرفات التي تبدر من جنوده، غير أن النبيّ ﷺ يستغل كل فرصة ليبلغ ما أنزل إليه من ربه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي دجانة، رقم (٢٤٧٠): ١٩١٧/٤.

(٢) انظر: الطبراني في المعجم الكبير، رقم (٦٥٠٨): ١٠٤/٧، والهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠٩/٦.

إنه دين رب العالمين، والنصر مرهون بمدى تمسك أصحاب هذا الدين بدينهم.

كما أن الأخلاق في ديننا قيم ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص والأحوال، فالصدق فضيلة والكذب رذيلة، والتواضع فضيلة والكبر رذيلة، وهكذا جميع الصفات المحمودة فهي فضائل يجب على المسلم التحلي بها في أموره كلها، بينما جميع الصفات المذمومة هي رذائل ويجب على المسلم التخلي عنها جملةً وتفصيلاً، وما فيه حالات استثنائية لم يتركها الشرع للأهواء والأمزجة تعبث بها، بل حددها وقيدها.

ومما جاء في قصة أبي دجانة أنه رأى في ميدان المعركة إنساناً يحمّس الناس حماساً شديداً، فلما حمل عليه السيف ليقتله، فإذا هو امرأة (هند بنت عتبة) فعدل عنها إكراماً لسيف رسول الله ﷺ أن يقتل به امرأة[1].

وذلك موقف أخلاقي في الحروب لم يعرفه في التاريخ إلا المسلمون الذين حرم عليهم دينهم قتل النساء في الحرب.

وذلك فيه إكرام أيما إكرام للمرأة، انفرد به الإسلام ليكون معلماً وهادياً للبشرية.

وذلك الإكرام هو المعنى الذي قصده النبيّ ﷺ بقوله: **«مَن يأخذه بحقه؟»**.

تحدي مشرك وحياء مسلم:

بدأ القتال في معركة أحد بمبارزة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين، الذي طلب المبارزة مراراً فلم يخرج إليه أحد، فقال متحدياً: «يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟».

---

(١) البداية والنهاية: ١٨/٤.

فخرج إليه علي بن أبي طالب ﷺ فقال له: «والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة»، فضربه علي فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: «يا ابن عمي، أنشدك الله والرحم»، فرجع عنه ولم يجهز عليه.

قال لعلي بعض أصحابه: «أفلا أجهزت عليه؟»، قال: «إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه»[(1)].

إن هذا الموقف من علي ﷺ ليدل على الانضباط المطلق بالأخلاق الإسلامية، فكيف بعد هذا التحدي والاستفزاز من طرف خصم عنيد، وبعد الجهد الكبير الذي بذله علي ﷺ في صرع من كان مصراً على قتله، فلما سقط عارياً ذليلاً تحت ظل سيفه تركه!

إنها التربية النبوية، لقد تعلم علي ﷺ من النبيّ ﷺ قوله: «**الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**»[(2)]، فعامله علي ﷺ بمستواه الراقي في الأدب، ولم ينزل إلى جاهلية ابن عمه.

وهكذا يكون المؤمن في كل زمان ومكان، يضع نصب عينيه رضا الله عزَّ وجلَّ دون سواه.

عفا الله عما سلف:

قُتل في معركة أحد سيد الشهداء وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب، ومُثل به، وقد تأثر النبيّ ﷺ لمقتل عمه تأثراً بليغاً، ولما فشا الإسلام في مكة أسلم وحشي قاتل حمزة، وعنه قال: «أتيت النبيّ ﷺ فقال لي: «**وحشي**». قلت: نعم، قال: «**قتلت حمزة؟**»، قلت: نعم، الحمد لله

---

(1) السيرة الحلبية: ٢/٤٩٧، ٤٩٨.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩): ١/١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم (٣٥)، وفيه: (بضع وسبعون، بدل بضع وستون): ١/٦٣.

الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقال: «**وحشي، اخرج فقاتل في سبيل الله كما قاتلت لتصد عن سبيل الله**»»[1].

لم يحقد عليه النبيّ ﷺ، ولم ينصب له مكيدة يلقى فيها حتفه، وحاش لله أن يخطر بباله شيء من ذلك وهو المعصوم المصون ﷺ صاحب الخلق العظيم الذي قال فيه رب العالمين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، فعفا عنه ووجهه إلى استدراك ما فات واستغلال ما هو آت في خير الأعمال والطاعات، فحثه على الجهاد في سبيل الله.

وكان لهذا الإرشاد النبوي تأثيره الفعال في نفس وحشي، فقد خرج في حروب الردة إلى اليمامة وقتل طاغيتها الذي ادعى النبوة مسيلمة الكذاب، وقال حين قتله: «قتلت خير الناس - يعني: حمزة - وقتلت شر الناس مسيلمة الكذاب»[2].

إنما الأعمال بالنيات:

كان في المدينة رجل يُدعى: قزمان، تأخر عن الخروج للقتال وكان منافقاً معروفاً بالشجاعة، عيّرته بعض النساء فالتحق بجيش المسلمين وقاتل قتال الأبطال إلى أن أثخن بالجراح، فناداه قتادة بن النعمان: «هنيئاً لك الشهادة»، قال: «بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي».

فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[3].

وفيه أيضاً أن الغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام، فرغم حاجة المسلمين لكلٍ من يعينهم على قتال العدو الذي يفوقهم عدداً وعدةً، ومع

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (٣٧٠): ١٣٩/٢٢، والهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: «إسناده حسن»: ١٢١/٦.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى: ٩٧/٩، والطيالسي في مسنده: ١٨٦/١، والطبراني في المعجم الكبير، رقم (٢٩٤٧): ١٤٧/٣.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ٩٩/٣.

ذلك لم يقبل الله القتال الذي لم يكن خالصاً له تعالى، فلا بد أن تكون كل من الغاية والوسيلة مشروعة.

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وأنه من قاتل حمية أو شجاعة... إلخ، ولم تكن أعماله لله تعالى لم يقبل الله منه، حتى ولو قاتل في جيش الرسول والصحابة.

وعلى عكس من هذا فقد وجد الصحابة في الجرحى الأصيرم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: «إن هذا الأصيرم، ما جاء بك؟ أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟»، فقال: «بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون»، ومات من وقته.

فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: **«هو من أهل الجنة»**[1].

كلاهما مات في جيش الرسول وهو يقاتل مع المسلمين، ولكن أحدهما في الجنة والآخر في النار، والسر في ذلك نية كل منهما.

حب الطبيعة من الإيمان:

في سفح جبل أحد دفن النبيّ ﷺ صفوة نقية من أصحابه الذين قتلوا في هذه المعركة، فكان ﷺ يتذكر سِيَرَ أولئك الأبطال والمكان الذي دفنوا فيه، ويتذكر التحصن بهذا الجبل حين انسحب بما بقي معه من أصحابه الأخيار من ميدان القتال، يتذكر ذلك كله ويقول: **«أحد، جبل يحبنا ونحبه»**[2]، لقد عبّر النبيّ ﷺ بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم (٢٣٦٨٤): ٤٢٨/٥، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في عمرو بن ثابت عرف بالأصيرم: ٣٦٢/٩. وانظر: سيرة ابن هشام: ٣٩/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الزكاة، باب خرص التمر، رقم (١٤١١): ٥٣٩/٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٢): ١٠١١/٢.

وهكذا يعلم النبيّ ﷺ المسلمين بالمواقع التي لهم فيها ذكريات لتكون لهم آثاراً وتاريخاً، فيتعظون بأحداثها ويقدرون أماكنها، وكل ذلك مبعثه الإيمان، فما أحبه رسول الله ﷺ يحبه المؤمن.

«والإنسان كثيراً ما يربَط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها... وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بياناً للحق، وابتعاداً عن الطيرة والتشاؤم... ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة، فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيِّئ، بيّن لهم أن المكان والزمان مخلوقات لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمور بيد الله تعالى، والاستشهاد في سبيل الله تعالى كرامة لصاحبه لا مصيبة... وإذاً أُحد يُكرم ويُحب انطلاقاً من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته»[١].

ولما حانت وفاة الرسول ﷺ جعل آخر عهده أن يزور قتلى أحد، وأن يدعو الله لهم، وأن يعظ الناس بهم.

عن عقبة بن عامر قال: «صلَّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: **«إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»**. قال: «فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ»[٢].

(١) معين السيرة النبوية: ص٤٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٣٨١٦): ١٤٨٦/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض رآه ﷺ وصفاته، رقم (٢٢٩٦): ١٧٩٦/٤.

معاملة النبيّ ﷺ للرماة الذين أخطأوا:

ترتب على مخالفة الرماة لأمر النبيّ ﷺ خطأ جسيم وخسارة فادحة، غير أنه ﷺ قابل خطأهم في اجتهادهم بعفو وسماحة، فلم يؤنبهم ولم يطردهم من صفوف المؤمنين، فقد عفا الله تعالى عنهم جميعاً عفواً غسل به خطاياهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وكما عفا الله عنهم فقد أمر نبيه أيضاً أن يعفو عنهم، تطييباً لنفوسهم وتتمة لنعمة الله عليهم، بل أكثر من ذلك: فقد حثه على الاستغفار لهم، وأمره أن يستشيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

معاملة النبيّ ﷺ للمنافقين الذين انخذلوا:

انسحب عبدالله بن أبيّ بن سلول في ثلاثمائة من المنافقين ليحدث بذلك اضطراباً في جيش المسلمين وتنهار معنوياته، وهذا غدر وخيانة للمسلمين وهم في أحلك الظروف، وبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم ولم يعرهم أي اهتمام.

وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وفشلَ ابن سلول، فقد افتضح أمام الناس بموقفه هذا وتفرقوا من حوله.

قال الإمام الزهري: «كان عبدالله بن أبيّ له مقام يقومه كل جمعة لا

ينكسر له شرف في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: «أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا»، ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: «اجلس أي عدو الله، والله لست لذلكَ بأهل وقد صنعت ما صنعت»...[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ٥٣/٤.



آثار أحد

جرّأت هزيمة أحد أعراب البادية على المسلمين، فبدأوا يتهيأون لغزو المدينة، وأولهم بنو أسد، و(خالد بن سفيان الهذلي)، فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث السرايا لإفشال هذه الاستعدادات، وعادت هذه السرايا دون قتال.

ومن المؤكّد أن هذه السرايا لم تتحرك إلا بعدما بدأت هذه الحشود تتجمع للهجوم على المدينة، فهم الذين بدأوا بالإعداد للعدوان ظناً منهم بأن المدينة بعد هزيمة أحد أصبحت لقمة سهلة الابتلاع.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



يوم الرجيع وبئر معونة

أولاً: يوم الرجيع:

في السنة الثالثة قدم وفد من قبائل عضل والقارة على رسول الله ﷺ يذكر أن أخبار الإسلام قد وصلتهم وأنهم بحاجة إلى من يعلمهم الإسلام، فبعث الرسول ﷺ معهم نفراً من أصحابه[1]، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا بالرجيع هاجمهم حي من قبيلة هذيل، فأعطوهم العهد والميثاق إن سلموا أنفسهم دون قتال ألا يقتلوهم، ثم غدروا بهم وقتلوهم، وأخذوا خبيب بن الأرت وزيد بن الدثنة فباعوهما بمكة.

يد تحمل وردة ليد تحمل لها الموت:

روى البخاري قال: «. . . فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً. . . حتى إذا أجمعوا على قتله استعار موسى يستحد بها من بعض بنات الحارث. قالت: «فأعرته وغفلت عن صبي لي حتى أتاه، فأجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: «تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك»». قالت: «والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب

(١) قيل: إنهم كانوا ستة، وقيل: عشرة.

في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر»، وكانت تقول: «إنه لرزق من الله رزقه خبيباً».

فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: «ذروني أركع ركعتين»، فتركوه فركع ركعتين ثم قال: «لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها... ثم قام إليه عقبة بن عامر فقتله»[1].

«في هذه الحادثة دلالة واضحة على مدى ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين، حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر... ولقد كانت هذه اللحظة - أي: وجود الطفل بين يدي الأسير - في حساب من يتعلق بالحياة ويفكر في الانتقام، فرصة رائعة لمساومة أو غدر في مقابل غدر، ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم، فما إن انتبهت أم الطفل إلى انصرافه نحو خبيب حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد.

ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب في حجره يلاطفه كأنه أب شفوق.

فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية للإنسان، خبيب هذا وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلماً وعدواناً، عرب أنبتتهم أرض واحدة، وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة، ولكن خبيباً اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنساناً آخر، وأولئك عكفوا على ضلالاتهم، فحبستهم ضلالاتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة.

فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل!»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر ومن ركع ركعتين عند القتل، رقم (٢٨٨٠): ١١٠٨/٣.

(٢) فقه السيرة، البوطي: ص٢٥٦.

محبة مثالية:

وأما زيد فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، فلما أخرجوه من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: «أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟»، قال: «والله ما أحب أن محمداً الآن في مَكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي». قال أبو سفيان: «ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً»[1].

«إذا تأملنا في جواب زيد... علمنا مدى المحبة التي كانت تنطوي عليها أفئدة الصحابة لرسولهم ﷺ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التي حببت إلى قلوبهم كل تضحية وبذل في سبيل دين الله تعالى والدفاع عن رسوله، ومهما بلغ المسلم في إيمانه، فإنه بدون مثل هذه المحبة لرسول الله ﷺ يعتبر ناقص الإيمان، وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله ﷺ إذ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[2][3].

ثانياً: بئر معونة:

في السنة الرابعة قدم عامر بن مالك المشهور بلقب (ملاعب الأسنة)، وقال للنبيّ ﷺ: «لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك». فقال ﷺ: «**إني أخشى عليهم أهل نجد**». قال عامر: «أنا لهم جار».

فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من خيار أصحابه، وحصل لهم ما

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ١٢٦/٤، تاريخ الطبري: ٧٨/٢ ـ ٧٩.

(٢) متفق عليه عن أنس بن مالك، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٤): ١٤/١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبيّ ﷺ، رقم (٤٤): ٦٧/١.

(٣) فقه السيرة، البوطي: ص٢٥٧.

حصل لأصحابهم يوم الرجيع، فقد أحاطت بهم قبائل من سليم وعصية ورغل وذكوان، فقاتل المسلمون دفاعاً عن أنفسهم حتى قُتلوا جميعاً، ولم يفلت منهم إلا عمرو بن أمية الضمري فرجع إلى المدينة[1].

في سبيل الدعوة:

لقد استشعر النبيّ ﷺ الخوف على المجموعة الثانية من أصحابه بعدما فعلت يد الغدر بالمجموعة الأولى فعلتها، ولكنه ﷺ كان يرى أن القيام بأعباء الدعوة ـ مهما فدحت الخسائر ـ أمر لا بد منه، ولئن لم يكن تحمّل مسؤولية الدعوة والنهوض بها إلا بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها، فلتكن المغامرة، وليكن ما أراد الله تعالى في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته[2].

الوفاء بالعهد:

من بين السبعين الذين قُتلوا أفلت عمرو بن أمية الضمري، وهو في طريقه إلى المدينة التقى برجلين من بني عامر، وكان بينهم وبين النبيّ ﷺ عهد وهو لا يعلم فقتلهما وهو يظن أنه أخذ بذلك ثأراً لأصحابه ممن قتلوهم، فلما قدم على رسول الله ﷺ وأخبره، قال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين لأدينّهما**[3]»[4].

وهذا موقف رفيع في مستواه الأخلاقي، فقد دفع النبيّ ﷺ دية الرجلين العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونهما في معاهدة مع النبيّ ﷺ ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.



---

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني: ٧٠/١٩، سيرة ابن هشام: ١٣٧/٤.
(٢) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٢٥٥، فقه السيرة، الغزالي: ص٢٩٦ وما بعدها.
(٣) لأدينّهما: لأدفع ديتيهما.
(٤) انظر: المعجم الكبير للطبراني: ١٢٩/٦، السيرة النبوية لابن هشام: ١٣٩/٤.



إجلاء بني النضير

سببه:

بعد هزيمة أحد ووقعة الرجيع وبئر معونة، تجرأ اليهود وأظهروا عداوتهم وغدرهم فأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة ويعملون لصالحهم ضد المسلمين، وذلك على الرغم مما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق.

وصبر النبيّ ﷺ حتى قاموا بمؤامرة تهدف إلى القضاء عليه ﷺ، وذلك أن النبيّ خرج إلى بني النضير في نفر من أصحابه وكلمهم أن يعينوه في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة.

قالوا: «نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه»، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟»، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: «أنا لذلك»، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم[1].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ١٥٢/٤.

كانت محاولة الاغتيال هذه تستهدف التخلص من محمد ﷺ ومن الدولة الإسلامية برمتها، لذا صمّم النبيّ ﷺ على محاربة هؤلاء الذين نقضوا العهد والمواثيق معه.

إنذار بني النضير:

ومع ما كان يستحقه بنو النضير من عقوبة قاسية على خيانتهم وغدرهم، فإن النبيّ ﷺ لم يفاجئهم بقتال، بل طلب إليهم أن يخرجوا من المدينة التي أباحوا بأسرارها وكشفوا نقاط ضعفها لأعدائها، فلم تعد مدينتهم بعد أن خانوها، وأعطاهم مهلة عشرة أيام لمغادرتها.

بدأوا يتهيأون للرحيل فأرسل إليهم عبدالله بن أبيّ بن سلول يشجعهم على البقاء، ويعدهم بأن معه ألفين من المقاتلين سيشاركون معهم، فتراجعوا وأبوا الخروج.

الحصار ثم الإجلاء:

حين رفضوا مغادرة المدينة بالتي هي أحسن، اضطر النبيّ ﷺ للخروج إليهم في جيشه فتحصنوا داخل حصونهم المنيعة، فحاصرهم ستة أيام وأخلف بن سلول وعده بنصرهم، عندها التمسوا من النبيّ ﷺ أن يؤمنهم حتى يخرجوا.

فوافقهم النبيّ ﷺ على ذلك وسمح لهم أن يأخذوا ما شاؤوا من أمتعة إلا السلاح، فرضوا بذلك.

وقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة بني النضير في سورة كاملة هي سورة الحشر.

وهكذا فقد انتهت هذه الغزوة دون قتال، إذ قذف الله تعالى الرعب في قلوب اليهود فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم.

شبهة والرد عليها: (تخريب ممتلكات الأعداء):

لما حاصر النبيّ ﷺ بني النضير تحصنوا في الحصون، فأمر النبيّ ﷺ بقطع بعض النخل وحرقها، فنادوه: «يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على مَن صنعه؟».

وجاء الجواب من عند الله تعالى، فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥]. وقد تناول الفقهاء هذه المسألة بتفاصيلها، وخلاصة ذلك:

١ ـ الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء، لأن الهدف من الحرب دفع أذى الحاكم الظالم وليس إيذاء الرعية.

٢ ـ قطع الشجر وهدم البناء يكون لضرورة من ضرورات القتال، كما حصل هنا وفي حصن ثقيف.

٣ ـ العدو: هم من حملوا السلاح ليقاتلوا فقط، وليس الشعب[1].



(١) انظر: خاتم النبيين، أبو زهرة: ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٩.



غزوة ذات الرقاع

كانت في السنة الرابعة بعد شهر ونصف من إجلاء بني النضير، وسببها ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، فخرج النبيّ ﷺ بجيشه قاصداً قبائل محارب وبني ثعلب، فتفرقوا ولم يقع أي قتال.

معاملة النبيّ ﷺ لجابر بن عبدالله:

عن جابر بن عبدالله قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع مرتحلاً على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف، حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: «**ما لك يا جابر؟**»، قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا. قال: «**فأنخه**»، ثم قال: «**أعطني هذه العصا**»، ففعلت فأخذ رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات[1] ثم قال: «**اركب**»، فركبت، فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يواهق[2] ناقته مواهقة.

وتحدث معي رسول الله ﷺ فقال: «**أتبيعني جملك هذا يا جابر؟**»، قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك، قال: «**لا ولكن بعنيه**»، قلت: فسمنيه، قال: «**بدرهم**»، قلت: لا، إذا يغبنني رسول الله ﷺ، قال: «**فبدرهمين**»،

(١) أي: طعنات خفيفة لينشط.
(٢) أي: يسابق.

قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية، قلت: «**فقد رضيت هو لك**».

ثم قال لي: «**يا جابر، هل تزوجت بعد؟**»، قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**أثيباً أم بكراً؟**»، قلت: بل ثيباً، قال: «**أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟**»، قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن، قال: «**أصبت إن شاء الله، أما أنا لو قد جئنا صراراً[1] أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذلك وسمعت بنا فنفضت نمارقها**»[2]، قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، قال: «**إنها ستكون**».

فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت فأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا، فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريباً منه، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: «**ما هذا؟**»، قالوا: يا رسول الله، هذا جمل جاء به جابر، قال: «**فأين جابر؟**»، فدعيت له، قال: «**يا ابن أخي، خذ جملك فهو لك**»، ثم دعا بلالاً فقال: «**اذهب بجابر فأعطه أوقية**»، فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً، فوالله ما زال ينمو عندنا ونرى مكانه من بيتنا[3].

في هذه القصة صورة جميلة ورفيعة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث لطف الحديث، والتواضع الرفيع، ورقة الحديث، وفكاهة المحاورة، ومحبة شديدة لأصحابه، والوقوف على أحوالهم، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية مادياً ومعنوياً»[4].

---

(١) اسم مكان في ضاحية المدينة.

(٢) النمارق، جمع نمرقة: وهي الوسادة الصغيرة للاتكاء.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم (١٥٠٦٨): ٣٧٥/٣، وقريباً منه في صحيح البخاري، رقم (١٩٩١): ٧٣٩/٢.

(٤) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.



غزوة بدر الثانية

سببها: تنفيذاً للموعد الذي كان قد اقترحه أبو سفيان بعد معركة أحد، والتزم الرسول ﷺ به، فقد خرج المسلمون من المدينة ووصلوا بدراً وأقاموا بها ثمانية أيام ينتظرون قريشاً، أما قريش فقد خرجوا من مكة باتجاه بدر ثم عادوا أدراجهم.

لم يحصل قتال في هذه الغزوة، ولكنها أثبتت وفاء المسلمين بوعدهم، وأثبتت قوتهم.





غزوة دومة الجندل

سببها: بعد ستة أشهر من بدر الثانية جاءت الأخبار إلى النبيّ ﷺ بأن القبائل حول دومة الجندل ـ قريباً من الشام ـ تقطع الطريق وتنهب الأموال، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة، فخرج إليهم النبيّ ﷺ في ألف من المسلمين، غير أنهم فروا، ولذلك لم يحصل قتال في هذه الغزوة.

وبهذه الإقدامات السريعة نجح المسلمون في بسط الأمن وتنفيذ السلام في المنطقة، فقد سكت المنافقون، واستكان البدو والأعراب، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالة رب العالمين[1].



(١) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.



غزوة بني المصطلق

سببها: أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له ويستعدون لقتاله، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فأرسل النبيّ ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، فتأكد من قصدهم وأخبر الرسول ﷺ بذلك.

لما تيقن النبيّ ﷺ من خبرهم سارع بالمسلمين ليطفئ الفتنة قبل اندلاعها، وخرج معه هذه المرة المنافقون طمعاً في الغنيمة، وهزم الله المشركين وسقطت القبيلة كلها أسرى في أيدي المسلمين.

الإحسان إلى الأسرى وتحريرهم:

عامل رسول الله ﷺ المهزومين بالإحسان، وجاء الحارث قائد القبيلة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر، فردّها عليه ثم خطبها منه.

ولما تزوجها النبيّ ﷺ استحى الصحابة أن يسترقوا أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوهم، فكانت جويرية بنت الحارث من أيمن الناس على أهلها[1].

بركة هذا الإحسان:

عاد زواج النبيّ ﷺ من جويرية ببركة عظيمة، فقد حرر الصحابة ما كان بأيديهم من الأسرى، وأسلم الحارث، وأسلمت القبيلة كلها، وبذلك كثر سواد المسلمين وزادت قوتهم.

---

(١) انظر: فقه السيرة، الغزالي: ص٣٠٧ ـ ٣٠٨.

محاولة المنافقين إثارة الفتنة بين المسلمين:

عن جابر بن عبدالله قال: «كنا مع النبيّ ﷺ في غزاة[(١)] فكسع[(٢)] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: «يا للأنصار»، وقال المهاجري: «يا للمهاجرين»، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«ما بال دعوى الجاهلية؟»**، قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: **«دعوها فإنها منتنة»**.

فسمعها عبدالله بن أبيّ فقال: «قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

قال عمر: «دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال النبيّ ﷺ: **«دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**[(٣)].

معالجة الفتنة الطائفية بالحكمة للحفاظ على وحدة الأمة:

ارتحل النبيّ ﷺ في وقت لم يعتد الرحيل فيه، ومشى بالناس يومهم وليلتهم وصدراً من يومهم الثاني، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا حتى ناموا، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث.

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى ﷺ على الفتنة الطائفية والعصبية الجاهلية، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أبيّ.

لم يواجه النبيّ ﷺ مؤامرة ابن سلول بالقوة، حرصاً على وحدة

---

(١) أي: غزوة بني المصطلق.

(٢) كسع: ضربه برجله.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، رقم (٤٦٢٢): ١٨٦١/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم (٢٥٨٤): ١٩٩٨/٤.

الصف المسلم، وإنها لسياسة شرعية حكيمة في معالجة المواقف العصيبة في حزم وقوة أعصاب وبُعد نظر.

وقد كان لهذا التسامح وهذه الحكمة أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويعرضون قتله على النبيّ ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، وقد كشف النبيّ ﷺ ذلك لعمر، فقال: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته**». فقال عمر: «قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»(١).

«وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها، سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر: من بلد أو مذهب أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصر على الحق لا على الباطل، بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي»(٢).

الرفق بالعدو الداخلي وحسن صحبته(٣):

كان لابن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى: عبدالله، لما علم ما فعل أبوه ونزلت سورة «المنافقون» أتى رسول الله ﷺ فقال له: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢٥٦/٤.

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: ٣٠١/٢ ـ ٣٠٢.

(٣) يعتبر المنافق في الأحكام القضائية الدنيوية مسلماً مع وجوب الحيطة والحذر منه.

نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر وأدخل النار». فقال رسول الله ﷺ: **«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»**[1].

كان ما سمعه النبيّ ﷺ من كلام ابن سلول مسوغاً كافياً لأن يأمر بقتله بحسب الظاهر، ولكنه ﷺ استقبل الأمر بالرفق وحسن الصحبة التي لا تكون إلا مع أحب الناس وأقربهم إلى الإنسان، فانظر كيف عامل النبيّ ﷺ رأس المنافقين، إنه لم يعامله بالتربص به والكيد له كما يفعل أي شخص مع عدوه الذي بدأ بالعداوة، بل تجاوز ذلك وقال: **«بل نترفق به»**.

ولم يعامله بالصبر عليه فحسب، بل ارتقى النبيّ ﷺ إلى مرتبة الإحسان، فقال: **«ونحسن صحبته»**، وليس ذلك الإحسان المبني على الغش والمخاتلة، فنبيّ الله ﷺ معصوم من ذلك، فإن قال شيئاً فهو الصادق المصدوق.

ولم يعامله بالإحسان ليوم أو يومين، بل إنه الإحسان الدائم، فقال: **«ونحسن صحبته ما بقي معنا»**.

أية عظمة هذه؟! إنه الذي قال فيه رب العالمين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ليكون قدوة لكل مسلم في كل زمان ومكان.

«كل هذه الصفات إنما تأتي من وراء صفة النبوة فيه، فهي كلها متفرعة عن كونه نبيًا ورسولاً إلى الناس»[2]، وعلينا أن نقتفي أثره ونسير على هداه، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

صبر جميل:

مما حدث أثناء عودة المسلمين من غزوة بني المصطلق: حديث

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢٥٥/٤ ـ ٢٥٦.

(٢) فقه السيرة، البوطي: ص٢٥٨.

الإفك المشهور، وخلاصته أن عائشة رضي الله تعالى عنها تأخرت عن القافلة تبحث عن عقد فقدته، ثم التحقت بالمسلمين ومعها صفوان بن المعطل ﷺ، فانتهز ابن سلول الفرصة وراح يتهمها بارتكاب الفاحشة، واستطاع التأثير في بعض الناس.

انقطع نزول الوحي في هذه الأثناء قرابة شهر، كان فيها النبيّ ﷺ صابراً ساكتاً، ثم استشار بعض أصحابه، فقالوا له خيراً.

أما عائشة، فلما رجعت مرضت شهراً، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً، حتى أخبرتها أم مسطح بعد ذلك، فجعلت تبكي لا يرقأ لها دمع، وحينئذٍ استوضح منها النبيّ ﷺ وأبوها وأمها، فقالت: «والله، ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾» [يوسف: ١٨].

ونزل القرآن الكريم يشهد ببراءة الصديقة بنت الصديق، زوجة الصادق المصدوق، الطاهرة المطهّرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١]... إلخ الآيات في ذلك[1].

وهكذا فبعد شهر انقشعت سحابة الشك وافتضح رأس المنافقين، قابل النبيّ ﷺ ذلك الطوفان من البلبلة والاضطراب والتشكيك في عرضه بالصبر والمصابرة إلى أن نزل الوحي من عند الله عزَّ وجلَّ.



(١) انظر: باب حديث الإفك في صحيح البخاري: ١٥١٧/٤، وباب حديث الإفك في صحيح مسلم: ٢١٢٦/٤.



غزوة الخندق (الأحزاب)

سببها: أن نفراً من زعماء يهود بني النضير قدموا مكة ودعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، فاتفقوا معهم وتواعدوا لذلك، ثم توجه ذلك الوفد من اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا قريشاً إليه فوافقوهم على ذلك، ثم التقوا ببني فزارة وبني مرة، وتواعدوا مع جميع هؤلاء على حرب المسلمين. بلغ رسول الله ﷺ خبر هؤلاء وتوجههم نحو المدينة، فشاور أصحابه، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بالخندق، وهبّ المسلمون جميعاً يحفرون الخندق بينهم وبين العدو الذي كان عدده عشرة آلاف جاءت من أماكن متفرقة واجتمعت قرب المدينة لاستئصال المسلمين الذين كان عدد جنودهم ثلاثة آلاف[1].

وهذا يؤكد لنا أن هؤلاء الأحزاب هم الذين جمعوا جيوشهم وجاؤوا من قبائلهم متجهين صوب المدينة، والطرف الفعال في جمعهم هم يهود بني النضير، وما كان من المسلمين إلا أنهم وقفوا موقف المدافع عن نفسه.

«وهذه الغزوة ـ كما ترى ـ قامت على أساس من غدر اليهود وكيدهم، فهم الذين أثاروا وألبوا وجمعوا الأحزاب، ولم يتوقف ذلك على بني النضير الذين كانوا قد أخرجوا من المدينة، بل اشترك معهم بنو قريظة الذين كانوا لا يزالون مرتبطين بعهود ومواثيق مع المسلمين، دون أن يجدوا منهم أي مكروه من شأنه أن يدعوهم إلى نقض تلك العهود والمواثيق.

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢/٧٦.

ولم نعد بحاجة إلى أن نعلق على هذا ونحوه ونستنبط منه العظات أو الدروس، فهو من جليات الأمور التي أصبحت من المقولات التاريخية المعروفة في كل زمان ومكان»[1].

موقف المنافقين من العمل في الخندق:

كانوا يشاركون بالحد الأدنى من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ، على عكس ما أبداه المسلمون من صبر وتضحية كبيرة لإتمام حفر الخندق حتى يحموا أنفسهم ومدينتهم من مداهمة هذا العدو الذي هاجمهم بعدد وعدة لا قبل لهم بمقاومتها.

وقد علم النبيّ ﷺ بسوء صنيع المنافقين، وكأن المدينة ليست مدينتهم وسلامتها لا تعنيهم، إنها خيانة الوطن، ولو كانت لهم غيرة وطنية ما تهاونوا في حمايته ولا توانوا في سبيله، بل كان الواجب الوطني يقتضي منهم أن يضحوا بنفوسهم وأموالهم عن رضا وطواعية في سبيل وطنهم الذي أصبح مهدداً من عدو خارجي، خصوصاً وأن المسلمين لم يسيئوا معاملة أحد من المنافقين ولم ينقضوا عهداً، بل عاملوهم بالرفق والإحسان.

ومع ذلك فقد غض النبيّ ﷺ الطرف عنهم ولم يعلق عليهم ولو بكلمة، حتى نزل القرآن يميز بين عمل المؤمنين والمنافقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢].

نقض بني قريظة للعهد:

خرج حُييّ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي ـ وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه ـ فلما سمع كعب بحُييّ بن أخطب أغلق

---

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٢٩٦.

دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فقال حيي: «ويحك يا كعب! افتح لي». قال كعب: «ويحك يا حييّ! إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقاً»، قال: «ويحك! افتح لي أكلمك»، ففتح له فقال: «ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر جئتك بقريش وقادتها وسادتها، وجئتك بغطفان وقادتها وسادتها، قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه».

فقال له كعب: «جئتني والله بذل الدهر، ويحك يا حييّ فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً»، فلم يزل حييّ بكعب حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

الرسول ﷺ يتحقق من نقض بني قريظة العهد:

لما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر بعث سعد بن معاذ وهو يومئذٍ سيد الأوس وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال: **«انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً[1] أعرفه ولا تفتوا في أعضاد[2] الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»**.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا: «مَنْ رسولُ الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»، ثم أقبل سعد ومن معه إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا: «عضل والقارة» ـ أي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ـ فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»**[3].

لم يتسرع النبيّ ﷺ في اتخاذ موقف ضد بني قريظة، بل تريث وتبين وحاول أن يخفي الحقيقة عن أصحابه حتى تنفرج الأزمة وينفك الحصار.

---

(١) أي: أشيروا لي بإشارة.
(٢) أي: لا توهنوا عزائمهم.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ١٧٧/٤ ـ ١٧٩، تاريخ الطبري: ٩٣/٢.

أي جيش في تاريخ الإنسانية عامل من نقض معه العهود وخانه في أحلك الظروف وهو في أمس الحاجة إليه، كما عامل محمد بن عبدالله ﷺ يهود المدينة؟

نجزم ـ ونحن كلنا ثقة ويقين ـ أن تاريخ الرومان والفرس والإغريق وغيرهم ما عرف عشر معشار أخلاق رسول الله ﷺ في معاملته لخصومه.

بين أمة وأمة:

قارن بين موقف المسلمين في وفائهم بالعهود واستحالة نقضهم لها، والحق ما شهدت به الأعداء، فعد إلى جواب سيد قريظة لسيد النضير، بل راجع تاريخ الأمة الإسلامية كله من لدن بعثة النبيّ ﷺ إلى يوم الناس هذا، فلن تجد مسلماً واحداً قد خان عهداً وله على ذلك دليل من الإسلام، وقارن ذلك بعهود اليهود عبر تاريخهم، فإنك ستعثر على هذه الحقيقة:

«ومسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديماً وحديثاً يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبداً، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا وقف تطلعهم الحرام نبذوها نبذ النواة، ولو تركت الحمير نهيقها والأفاعي لدغها، ما ترك اليهود نقضهم للعهود. وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل، وأشار إلى أنها أحالتهم حيواناً لا أناسي، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥]»[1].

الحكمة ضالة المؤمن:

غزوة الأحزاب هذه هي أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يحفر فيها الخندق، وهي فكرة من اقتراح سلمان الفارسي، وهذا مما يدل على أن الحكمة هي ضالة المؤمن فحيثما وجدها التقطها، بل هو أولى بها من غيره.

والشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا الخير والمبادئ المفيدة، أينما لاح

---

(١) فقه السيرة، الغزالي: ص٣٢٨.

لهم ذلك وحيثما وُجد[1].

شدة تضرع الرسول ﷺ ونزول النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع لله تعالى في مغازيه خصوصاً عندما يشتد الكرب على المسلمين، وفي هذه الغزوة بلغ الكرب أشده فهو كما وصفه الله تعالى في كتابه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠]، فتوجه المسلمون إلى النبيّ ﷺ وقالوا: «يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟»، قال: **«نعم، اللَّهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»**[2]، وكان رسول الله ﷺ يدعو على الأحزاب ويقول: **«اللَّهم منزل الكتاب سريع الحساب، اللَّهم اهزمهم وزلزلهم»**[3].

فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ فشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩].

وحرص الرسول ﷺ أن يؤكد لأصحابه وللمسلمين من بعد على قاعدة مهمة جداً، وهي: إنما النصر من عند الله، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»**[4].

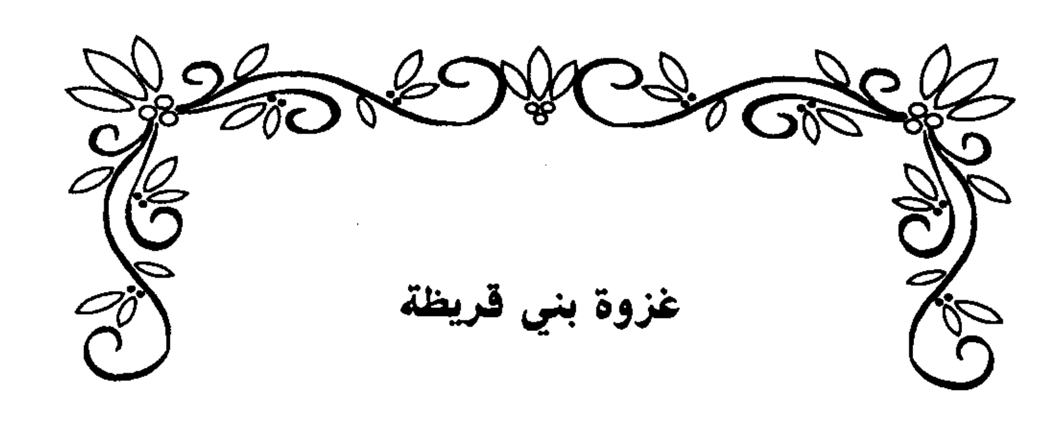
---

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري عن أبيه، رقم (١١٠٠٩): ٣/٣.

(٣) متفق عليه عن عبدالله بن أبي أوفى، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، رقم (٢٧٧٥): ١٠٧٢/٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، رقم (١٧٤١): ١٣٦٣/٣.

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٣٨٨٨): ١٥٠٩/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢٤): ٢٠٨٩/٤.



غزوة بني قريظة

سببها:

السبب الأول: هو الخيانة العظمى التي ارتكبها يهود بني قريظة حين خانوا الوطن بانضمامهم إلى قريش والأحزاب الذين جاؤوا من قبائل متفرقة وتجمعوا حول المدينة للقضاء على المسلمين.

والسبب الثاني: نقضهم للمعاهدة السلمية والتعاونية التي كانت تربطهم بالمسلمين، وإعلانهم الحرب على المسلمين، وتقديم كافة المساعدات العسكرية والمعنوية للعدو الخارجي الذي هاجم المدينة.

ولذلك جاء الأمر من عند الله عزَّ وجلَّ للمسلمين بالاقتصاص من هؤلاء الذين خانوا العهد والوطن، فقد جاء في الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: «لما رجع النبيّ ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم». قال: **«فإلى أين؟»**، قال: «هاهنا»، وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبيّ ﷺ إليهم»[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبيّ ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرتهم إياهم، رقم (٣٨٩١): ٤/١٥١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، رقم (١٧٦٩): ٣/١٩٨٣.

الحكم العادل:

حاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث اقتراحات فرفضوها، وحينئذ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقام الأوس إلى النبيّ ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، هؤلاء موالينا فأحسن فيهم»، فقال: **«ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»**، قالوا: «بلى»، قال: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**.

وأقبل الأوس معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: «يا أبا عمرو، أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: **«قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»**.

فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى سيدكم»**، وقال رسول الله ﷺ: **«أحكم فيهم»**، فقال سعد: «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيها ما حكمت؟»، قال سعد: «فإني أحكم فيهم بأن تُقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء».

فقال رسول الله ﷺ لسعد: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»**[1].

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة ـ بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع ـ كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وجحفة.

وهو جزاء عادل نزل بمن أراد الغدر وتبرأ من حلفه للمسلمين، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً عادلاً[2].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٠٠/٢ ـ ١٠١، سيرة ابن هشام: ١٩٨/٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، الصلابي: ٢٩٧/٢، الرحيق المختوم: ص٣٧٤.

«إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجاً، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها... فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل؟

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة ـ وهم لم يروا في جوار محمد إلا البر والوفاء ـ يستدبرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في قتل المسلمين وسلبهم؟!»[١].

شفاعة صحابي في أسرة يهودية من بني قريظة:

استوهب ثابت بن قيس من النبيّ ﷺ الزبير بن باطا وأهله وماله، وكانت للزبير يد عند ثابت، فقال ثابت للزبير: «قد وهبك رسول الله ﷺ إليّ ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك». فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: «سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة». فقُتل.

وكان للزبير بن باطا ابن يسمى: عبدالرحمٰن، فأسلم وصار من الصحب الكرام ﷺ جميعاً.

شفاعة صحابية في يهودي:

استوهبت سلمى بنت قيس ﷺ رفاعة بن سموأل القرظي، فوهبه لها النبيّ ﷺ، فأسلم وصار من أصحاب الرسول ﷺ.

وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها، بل ويساعدها ويشجعها على فعل الخير[٢].

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٣٥.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٣٧٥، السيرة النبوية، الصلابي: ٢/٣١١ ـ ٣١٢.

من أسلم من بني قريظة ومصيره:

وأسلم من بني قريظة نفر قبل أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فحقنوا دمائهم وأموالهم وذراريهم.

وفي هذا دليل على أن من أسلم عن طواعية واختيار، فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، لأن الإسلام يَجب ما قبله، ويجعل المسلمين كلهم إخوة في الدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

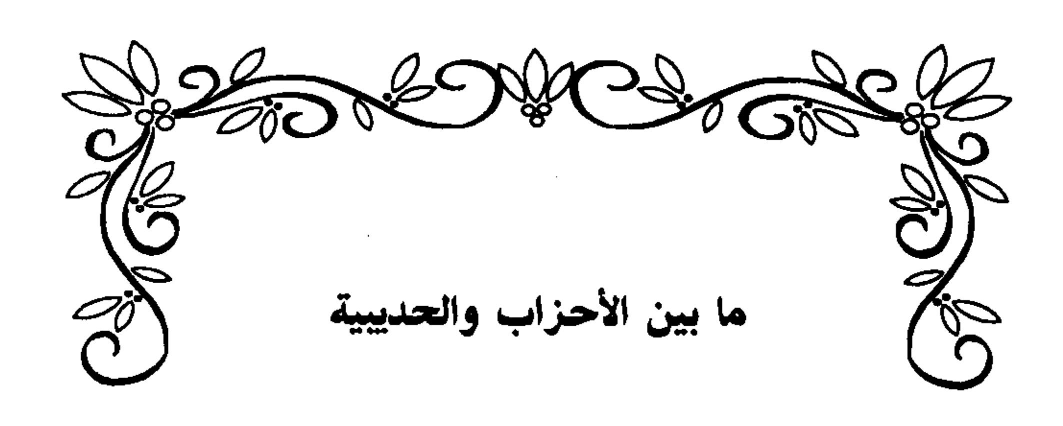
مصير من بقي على دينه ولم ينقض العهد:

سمح المسلمون أثناء الحصار لليهود الذين رفضوا الغدر أيام الأحزاب أن يخرجوا فجزوهم عن وفائهم خيراً، وتركوهم ينطلقون حيث يبغون، ومن بينهم عمرو القرظي، وكان قد بقي على دينه ولم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، فخلى المسلمون سبيله، وأسلمت ابنته ريحانة.

وفي هذا دليل على أن المسلمين عند عهدهم لمن وفى بعهده بغض النظر عن دينه، فالمواطنة تشمل الجميع، والجميع يخضعون لقانون الحقوق والواجبات، ولكل دينه الخاص الذي ارتضاه لنفسه، فالعقوبة إن وجبت فهي على أساس الإخلال بنظام الحقوق والواجبات وليست على أساس اختلاف الدين، قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

النفس بالنفس:

لم تقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].



ما بين الأحزاب والحديبية

العفو دون مقابل:

أرسل النبيّ ﷺ عدة سرايا في هذه الفترة للاستطلاع، أولها سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء، وفي طريق عودتهم أسروا رجلاً يقال له: ثمامة، كان قد خرج متنكراً لاغتيال النبيّ ﷺ.

عن أبي هريرة قال: «بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن آثال، سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**»، فقال: «عندي يا محمد خير، إن تَقْتُل تقتل ذا دم وإن تُنْعِم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت».

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**»، قال: «ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت». فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**»، فقال: «عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت».

فقال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

محمداً عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإنّ خَيْلَكَ أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟».

فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: «أصبوتَ؟»، فقال: «لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ»[1].

الرسول ﷺ يسمح بتقديم الإغاثة لمحاربيه:

عاد ثمامة إلى قومه وكانت اليمامة ريف مكة، ومنع المدد الغذائي عن مكة حتى جاعت قريش، مما دفع سادة قريش إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام.

واستجاب النبيّ ﷺ لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى ثمامة: «**أن خلّ بين قومي وبين ميرتهم**[2]»، فامتثل ثمامة أمر النبيّ ﷺ وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[3].

تأمّل أخلاق النبيّ ﷺ لتعلم أن القتال أثناء المعركة شيء والعلاقات التي تربط المسلمين بأعدائهم في غير المعركة شيء آخر، فالقتال يقتضي الشجاعة والإقدام والتضحية بالنفس لإعلاء دين الله لا لأمر آخر، بينما

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم، رقم (٤٥٠): ١٧٦/١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، رقم (١٧٦٤).

(٢) الميرة: الطعام. مختار الصحاح، الرازي: ص٤٠٥.

(٣) انظر: السيرة الحلبية: ٢٩٨/٢، زاد المعاد، ابن القيم: ١١٩/٢.

التعامل مع العدو في غير ساحة القتال يقتضي الالتزام الحقيقي بأخلاق الإسلام وضبط تام للنفس وانضباط تام بالشرع ومراعاة مصلحة المسلمين، وكل ذلك داخل فيما يعرف بـ: السياسة الشرعية.

فلا ردود أفعال، ولا انتقام، ولا خلفيات، ولا عصبيات جاهلية منتنة.

ومن بين السرايا في هذه الفترة أيضاً:

سرية عبدالرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل:

ودومة الجندل قرية تقع في قلب الصحراء العربية، ومما أوصى به النبيّ ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف: **«اغزُ باسم الله وفي سبيل الله فقاتل مَن كفر بالله، لا تَغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً»**، فلما قدمها مكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فلا يقابلونه إلا بالسيف، ثم أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً، فكتب عبدالرحمٰن بن عوف بذلك إلى النبيّ ﷺ، فكتب إليه النبيّ ﷺ أن يتزوج بنته تماضر بنت الأصبغ، فتزوجها ثم أقبل بها.

جيش مبادئ وعقيدة:

لم يخرج جيش عبدالرحمٰن لنهب أموال الآخرين، ولا للسيطرة على مواقع الثروات، ولا لاستعراض القوة، بل كان جيش مبادئ وعقيدة، حيث تحرك في هذه الصحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمته مستوعباً لمقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمد ﷺ، ولا مكان لزعيم أو قبيلة أو شعار أو قومية بجوار هذه الراية: **«اغز باسم الله وفي سبيل الله»**.

ثم نهى رسول الله ﷺ عن الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهى عن الغدر في العهود، وعن قتل الأولاد، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي السامي في الجهاد.

حرص الإسلام على روابط المودة:

أرشد النبيّ ﷺ عبدالرحمٰن أن يتزوج بابنة زعيم دومة الجندل، وفي ذلك تقوية لروابط المحبة عن طريق المصاهرة، وقد كان النبيّ ﷺ يحرص على أن يتزوج هو وقادته ببنات سادة القبائل لأن ذلك كسباً كبيراً دون قتال لدعوة الإسلام، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام[1].

غزوة الغابة:

أغار عيينة بن حصن الفزاري مع رجاله على إبل للمسلمين بالغابة، وقتلوا ذر بن أبي ذر الغفاري، وأسروا زوجته، واستاقوا عشرين من الإبل.

وخرج النبيّ ﷺ في إثرهم واستنقذ الإبل، وتمكنت المرأة التي أسروها من الإفلات على ظهر ناقة من إبل المسلمين، وقد نذرت إن نجاها الله أن تنحر تلك الناقة.

للحيوان حق:

فلما أرادت نحرها منعها الناس، فذكروا ذلك لرسول ﷺ فقال: «**بئسما جزيتيها**»، أي: أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر، ثم قال لها: «**لا نذر في معصية، ولا فيما لا تملكين**»[2].

فانظر كيف تعاطف المسلمون مع الناقة بسبب فضلها على المرأة حيث كانت السبب في نجاتها من الأسر، فكان من الصحابة أن منعوا المرأة من نحرها اعترافاً بفضلها عليها.

ويبدو أنه حصل أخذ ورد بين المرأة والصحابة، فالمرأة تريد الوفاء

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي، الحميدي: ٦/١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عمران بن حصين، كتاب النذور، رقم (٤٣٩٢): ١٠/٢٣٧، وأحمد في مسنده: ٤/٤٢٩.

بنذرها، والصحابة يدافعون عن الناقة التي أحبوها لجميلها، حتى رُفعت القضية لصاحب الشرع ﷺ يفصل فيها.

وكيف يمكن أن يكون موقف المشرع ﷺ وهو الرحمة المهداة؟ لقد شرع للناقة حق الحياة، وحكم على نذر المرأة بأنه معصية فقال: «**لا نذر في معصية**»، بل أكثر من ذلك فقد وصف ﷺ ما نوت المرأة فعله بأنه أسوأ جزاء لأحسن عمل، فالناقة قدمت للمرأة الحياة وهي تريد أن تقابلها بالموت، فقال ﷺ: «**بئسما جزيتيها**»، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمٰن: ٦٠].

سرية زيد بن حارثة إلى العيص:

اعترض جيش زيد قافلة لقريش، فأخذها وما فيها وأسر بعض أفرادها، وأفلت منهم قائد القافلة أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله ﷺ ـ وكانت ﵂ هاجرت وبقي هو على شركه في مكة ـ فأتى زينب فاستجار بها وسألها أن تطلب من رسول الله رد أموال العير عليه، ففعلت، وحث النبيّ ﷺ الناس أن يردوا عليه ماله، فردوه كله، ثم رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينب[1].

العقل السليم والموقف السليم:

في هذه القصة دليل على أن المسلمين ليسوا طلاب دنيا ولم يكونوا يوماً ما كذلك، فهذه زينب التي طلقت من أبي العاص بسبب شركه منذ ثلاث سنين ونيف تجيره وتستجيب لطلبه، وهذا النبيّ ﷺ يذكر أبا العاص بخير لأصحابه ويحثهم على أن يردوا له ماله الذي تم تقسيمه عليهم، وهؤلاء الصحابة الكرام هم أولاء في المستوى المطلوب فقد أعادوا إليه ماله كله.

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٣٨٢ ـ ٣٨٣.

هذه المواقف الرائعة أثرت في أبي العاص تأثيراً إيجابياً، فجعلت عقله يستيقظ ويتخلى عن التعصب الأعمى لتقاليد الآباء، ويعيد التفكير بحياد فيما عليه قومه وما يدعو إليه نبيّ الإسلام، ويتخذ الموقف الصحيح: فيعيد الأموال إلى أصحابها، ويلتحق بالصحب الكرام مسلماً مهاجراً إلى الله ورسوله.

□ □ □ □ □ □



صلح الحديبية

سببه:

رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه قد دخل مكة مع أصحابه محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدي، وحلّق بعضهم وقصر البعض، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذاك.

وبالفعل فقد أخبر النبيّ ﷺ أصحابه أنه معتمر، فتجهزوا للسفر، واستنفر ﷺ من حوله من البوادي ليخرجوا معه، فأبطأ كثير منهم، وخرج ومعه ألف وأربعمائة شخص في ذي القعدة سنة ٦هـ، ولم يخرج معه بسلاح إلا بسلاح المسافر.

سؤال والجواب عنه:

ظلت حالة الحرب قائمة بين المسلمين وقريش، فكيف ينوي المسلمون العمرة في هذه الظروف؟

«والجواب: أن النبيّ ﷺ أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عباداتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم، والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون»[1].

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٤٨.

رغبة المسلمين في السّلم:

وكانت كل الأمارات تدل على أن المسلمين ما جاؤوا إلا لأداء العمرة، فبذي الحليفة أحرموا بالعمرة وقلدوا الهدي الذي سيذبح ليطعم به فقراء مكة، الفقراء الذين حشدوا لاستئصال المسلمين يوم الأحزاب.

وفي ذلك آية على رغبة المسلمين العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علائق أهدأ وأرقّ.

أكان الكافرون برسالة محمد ﷺ يفقهون هذه النية ويقدرون مكان صاحبها؟[١].

شبح الحرب: قريش تصر على القتال والمسلمون يصرون على السلم:

سار المؤمنون الواثقون مع رسول الله ﷺ ملبين فلما بلغوا (عسفان) جاءهم الخبر أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها، قد قررت صد المسلمين كيفما يمكن.

وبدا شبح الحرب يملأ البقاع المحرمة، والمسلمون لم يجيئوا لهذا، وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه.

تبديل الطريق ومحاولة اجتناب الصدام الدامي:

ومضياً مع الرغبة عن القتال، وتخليصاً للنسك المقصود من شائبة تحدٍ، سأل رسول الله ﷺ: **«من رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟»**، فجاء رجل وسلك بهم طريقاً وعراً شقّ على المسلمين اجتيازه ووصلوا بصعوبة إلى الحديبية قريباً من مكة.

ومضى النبيّ ﷺ بأصحابه في وجهتهم، فإذا بناقته (القصواء) تبرك، فقال الناس: «خلأت[٢] القصواء»، فقال النبيّ ﷺ: **«ما خلأت القصواء وما**

---

(١) انظر المرجع السابق: ص٣٤٩.

(٢) خلأت الناقة: حرنت وبركت من غير علة. مختار الصحاح، الرازي: ص١٢٤.

ذاك لها بخلق، **ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجرها فوثبت.

فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[1] قليل الماء يتبرضه[2] الناس تبرضاً فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

بديل بن ورقاء يتوسط بين المسلمين وقريش:

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، فسألوا النبيّ ﷺ ما الذي جاء به؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره**».

فرجعوا إلى قريش وأخبروهم أن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتهموهم، ورأوا أن مهابة قريش ستنزع من أفئدة الناس إذا دخل المسلمون مكة.

رسل قريش:

غير أن قريشاً أحست بخطورة الموقف إن هي أصرت على القتال، فأرسلت (مكرز بن حفص) فعاد بما عاد به بديل الخزاعي، ثم بعثوا سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) فلما رأى الهدي عاد قبل أن يصل إلى النبيّ ﷺ وأكد لقريش أن المسلمين جاؤوا للعمرة، ثم بعثت قريش (عروة بن

---

(١) ثمد: حوض.

(٢) يتبرضه: يأخذ منه القليل.

مسعود)، فبين له النبيّ ﷺ أنه ما جاء إلا لزيارة البيت كما يزوره غيره، ورجع عروة ينوه بإجلال الصحابة لرسول الله ﷺ، ونصح قريشاً قائلاً: «إن محمداً قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها».

فظاظة المشركين وسماحة المسلمين:

كل المفاوضين عن قريش رجعوا مقتنعين بأن المسلمين لا يرغبون في مواجهة مسلحة وما جاؤوا إلا للعبادة، غير أن قريشاً استبد بها الطيش وقررت ألا يدخل المسلمون البلد الحرام، فبعثت أربعين أو يزيد من رجالها بسلاحهم ليستفزوا المسلمين ويصيبوا منهم حتى تشتعل نار الحرب.

وملك المسلمون أعصابهم وألقوا القبض عليهم جميعاً وأتوا بهم إلى النبيّ ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم.

وفي فظاظة قريش وسماحة المسلمين نزل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦].

كانت رسل قريش تغدو على رسول الله ﷺ وتروح، فلا يعترضها أحد، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك.

ولولا صبر المسلمين وتسامحهم غير المحدود لوقع اصطدام بينهم وبين قريش، ولو حصل ذلك لكانت نهاية قريش ولما قامت لهم قائمة بعدها، فقد فقدت قريش وعيها ولم تكن تدري بأنها تنتحر، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

عثمان بن عفان سفير سلام إلى قريش:

رأى رسول الله ﷺ أن يعيد المحاولة لإقناع قريش بتركه يزور بيت الله الحرام ويعود لشأنه، فأرسل عثمان بن عفان لهذه المهمة، فاحتبسته قريش، وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل.

بيعة الرضوان:

حين بلغت هذه الشائعة مسامع النبيّ ﷺ قال: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ودعا المسلمين إلى مبايعته، فهرع الصحابة يبايعونه على ألا يفروا، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**»، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

إبرام الصلح:

عرفت قريش حراجة الموقف فأطلقت عثمان بن عفان وأرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح، ولم يكن يعنيها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام، على أن يعودوا بعدُ إن شاؤوا، وذلك إبقاء على مكانة قريش في العرب.

ولما جاء سهيل بن عمرو قال النبيّ ﷺ: «**لقد سهل لكم من أمركم**»، وتكلم سهيل وعرض الشروط التي يتم في نطاقها الصلح ووافق عليها النبيّ ﷺ، ولم يبقَ إلا تسجيلها في وثيقة يمضيها الفريقان.

دهشة عامة:

حدثت في المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها النبيّ ﷺ في إبرام هذا الصلح، فقد لان مع قريش إلى حدود بعيدة، ولم يستشر أصحابه كعادته ﷺ، وأقر ما لم تستوعبه عقولهم البشرية!

وفي موقف عمر بيان لهذه الدهشة: قال عمر بن الخطاب: «أتيت نبيّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيّ الله حقاً؟ قال: «**بلى**». قلت: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟»، قال: «**بلى**». قلتِ: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**». قلت: أوَليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**»، قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**».

قال: «فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره». قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به».

لقد كانت الصورة الظاهرة في شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين، فقد أعطى النبيّ ﷺ المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه.

موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

بينما رسول الله ﷺ يكتب المعاهدة، إذ جاء ابن المفاوض عن قريش، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يريد الالتحاق بالمسلمين، ورأى سهيل ابنه فقام إليه فضربه، ثم قال: «يا محمد، قد لجت القضية[1] بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا»، قال: «**صدقت**».

جعل سهيل يجر ابنه ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟».

لقد بلغ التوتر النفسي والعصبي لدى المسلمين ذروته، ولكن منطق الإيمان يقتضي عدم رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، وعدم تقديم رأيهم على رأيه ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**».

---

(١) أي: تم الاتفاق.

«إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث، لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة تكتب كذلك وفي الجد في عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد...

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس.

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل، وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه مما زاد في إيلامهم، حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفضاضة الوثني الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة»[1].

حكمة امرأة تنقذ أمة:

لما فرغ النبيّ ﷺ من قضية الكتاب قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**» ـ ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة ـ فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!

فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: «يا نبيّ الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك».

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك. فلما رأى المسلمون ذلك

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ٢/٣٨٥ ـ ٣٨٦.

قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1].

كان رأي أم سلمة سديداً ومباركاً، وعرف النبيّ ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة، كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتيَ المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة، وهل هناك احترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيّ مرسل ويعمل النبيّ ﷺ برأيها لحل معضلة اصطدم بها وأغضبته؟[2].

لو لم تنقذنا أمنا ـ أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها بحكمتها البالغة لهلكت الأمة بسبب عصيانها لرسول الله ﷺ، وكيف يقبل الله تعالى عملاً من أمة عصت أمر نبيه ﷺ؟ كاد غضب الله وسخطه يحيق بالأمة، فلولا تدخل الأم ـ في آخر لحظة ـ لهوى أبناؤها إلى قعر الهاوية!

موقف أبي بصير والوفاء بالعهد:

استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر من سجن المشركين في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله ﷺ في المدينة، فبعثت قريش اثنين من رجالها ليرجعا به، تنفيذاً لشروط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك**»، قال: «يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟»، قال: «**يا أبا بصير، انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً**»، فانطلق معهما، وأفلت منهما في الطريق،

---

(١) قصة صلح الحديبية كاملة في صحيح البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١): ٢/٩٧٤ ـ ٩٧٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ٢/٣٨٨ ـ ٣٨٩.

وعاد مرة أخرى إلى النبيّ ﷺ، وأبى النبيّ انضمامه إلى المسلمين، فسافر إلى منطقة (العيص) وأقام بها إلى أن التحق به بعض من أمثاله فشكلوا خطراً على تجارة قريش، فطلبت قريش من النبيّ ﷺ احتواءهم، وبذلك كانت هي التي تنازلت عن شرطها، فاستدعاهم النبيّ ﷺ[1].

وهكذا وفي كل مرة يعطينا النبيّ ﷺ من سيرته العطرة دروساً عملية في الأخلاق، خصوصاً تلك التي تتعلق بالوفاء، فقد كان ﷺ «يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقاته الدولية، فقد أوصى الله تعالى بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[2].



---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٢٥/٢، سيرة ابن هشام: ٢٩٢/٤.

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر، الصلابي: ٣٩٤/٢.



غزوة خيبر

سببها:

كانت خيبر هي وكر الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب: فأهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبيّ ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون لمجابهة هؤلاء المعتدين[1].

الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

تفاجأ اليهود لما رأوا جيش المسلمين قريباً منهم، فهرعوا إلى حصونهم، فحاصرهم النبيّ ﷺ لكنهم ثبتوا وقاوموا، فلما كانت ليلة الهجوم، قال ﷺ: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**»، فقيل: «هو يا رسول الله يشتكي عينيه»،

---

(١) انظر: الرحيق المختوم: ص٤٣٠ ـ ٤٣١، فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٦٨.

قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: «يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟»، فقال: «**انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[1].

«ولو نزل القوم على أحكام الله وتركوا الخلال الدنيئة التي عاشوا بها وعاملوا الناس بسوئها لأراحوا واستراحوا، غير أنهم أبوا إلا الحرب».

«والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلاً وإن آجلاً[2]، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلت بنفسها عذاب الله**»[3]».

رسول يدعو إلى دين الله ولا يطمع في مال عباد الله:

عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر فخرجت سرية فأخذوا إنساناً معه غنم يرعاها، فجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فكلمه النبيّ ﷺ ما شاء الله أن يكلم، فقال له الرجل: «إني آمنت بك وبما جئت به فكيف بالغنم يا رسول الله؟»، قال: «**أحصب وجوهها ترجع إلى أهلها**»، فأخذ قبضة من حصباء أو تراب فرمى بها وجوهها، فخرجت تشتد حتى دخلت كل شاة إلى أهلها، ثم تقدم إلى الصف فأصابه سهم فقتله، ولم يصل لله سجدة قط، فقال رسول الله ﷺ: «**أدخلوه الخباء**»، فأدخل خباء رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ دخل عليه ثم خرج فقال:

---

(١) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٧٢): ١٥٤٢/٤.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس، رقم (٢٢٦١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»: ٤٣/٢، والطبراني في االمعجم الكبير، رقم (٤٦٠): ١٧٨/١.

«لقد حسن إسلام صاحبكم لقد دخلت عليه وإن عنده لزوجتين له من الحور العين»[1].

هكذا يعلمنا النبيّ ﷺ أنه بُعث ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد الخالص، ومن جور الأديان التي دنسها البشر بتحريفهم إلى عدل الإسلام الذي جاء يدعوَ إليه خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

فلو كان هدف المسلمين من هذه الحرب وغيرها السعي وراء الدنيا والحصول على أموال الناس ونهب خيراتهم وثرواتهم، لكانت هذه الحادثة وأمثالها فرصة سهلة لأكل أموال الآخرين بأنواع شتى من الحيل والالتواءات، ولقد كان من اليسر بمكان أن يقنع النبيّ ﷺ أصحابه أن هذه أموال الأعداء ونحن معهم في حرب، فهي مغنم سيق لنا.

حاش لله أن يحل رسول الله ﷺ لأصحابه الحرام، إن الحلال ما أحله الله إلى يوم القيامة ولجميع الناس، والحرام ما حرمه الله إلى يوم القيامة وعلى جميع الناس.

لم يخرج المسلمون يقاتلون من أجل دنيا يصيبونها، وإنما خرجوا معرّضين أنفسهم للموت من أجل إعلاء كلمة الله.

ولقد فقه الصحابة الأطهار هذا المبدأ فعاشوا به وله، وإليك هذه القصة التي حدثت أثناء هذه الغزوة:

الأعرابي الشهيد:

عن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب آمن برسول الله ﷺ وقال: «أهاجر معك»، فأوصى النبيّ ﷺ أصحابه به، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: «قسمه لك

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبدالله، رقم (٢٦٠٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»: ١٤٨/٢، والبيهقي في سننه الكبرى: ١٤٢/٩.

رسول الله ﷺ»، فأخذه فجاءه فقال: «يا محمد، ما على هذا اتبعتك ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة». فقال: «**إن تصدق الله يصدقك**»، فلبثوا قليلاً ثم نهض إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبيّ ﷺ وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبيّ ﷺ: «**أهو هو؟**»، قالوا: «نعم»، قال: «**صدق الله فصدقه**»، فكفنه النبيّ ﷺ ثم قدمه فصلّى عليه، وكان مما ظهر من صلاته عليه: «**اللَّهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، فقُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد**»[1].

إنه الحرص على ما عند الله، وليس الطمع فيما في أيدي الناس.

موقف النبيّ ﷺ من اليهودية التي حاولت قتله بالسم:

لما اطمأن النبيّ ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له امرأة يهودية شاة مشوية مسمومة وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها، فتناول النبيّ ﷺ مضغة منها، فلاكها، وكان معه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**»، فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**»، قالت: «بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر». فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل[2]، وقيل: «اقتص له منها»، وقيل: «بل أسلمت وعفا عنها».

إن الذي أجمعوا عليه هو أن النبيّ ﷺ عفا عنها أولاً، ومعناه: أنه سامحها فيما يتعلق بمحاولة اغتياله هو شخصياً، وهذا يؤكد أنه لا ينتقم لنفسه ﷺ ولا يضمر لأحد حقداً ولا ضغينة، بل هو الرحمة المهداة للإنسانية جمعاء، فها هو منتصر قد ملك رقاب الذين ناصبوه العداء من غير

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى عن شداد بن الهاد، باَب الصلاة على الشهداء، رقم (١٩٥٣): ٦٠/٤، والحاكم في المستدرك، رقم (٦٥٢٧): ٦٨٨/٣، والطحاوي في شرح معاني الآثار: ٥٠٦/١.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٣٠٩/٤ ـ ٣١٠، تاريخ الطبري: ١٣٨/٢.

أن يتسبب لهم في سوء، ولطالما حاكوا ضده المؤامرات تلو المؤامرات، وألبوا عليه الأعداء، ووقفوا إلى جانب الوثنية ضد التوحيد، بل قالوا لعباد الأصنام: «إن آلهتكم خير من إله محمد!».

وإلى آخر لحظة لا تفارقهم خصالهم الذميمة، وفي حال انهزامهم تأتي هذه اليهودية تحاول آخر محاولة، عساها تقدم لقومها ما عجز عنه شياطين اليهود وجيوشهم، تحاول أن تهدي لهم محمداً جثة هامدة مسمومة.

هيهات، إنه ﷺ محفوف بالرعاية الإلهية، معصوم من قوى الشر العالمية، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

جناية اليهود على أنفسهم:

صالح النبيّ ﷺ اليهود الذين استسلموا دون قتال والذين انهزموا بعد القتال أن يزرعوا الأرض على النصف من نتاجها، شريطة أن لا يرتكبوا أي فعل عدواني ضد المسلمين فإن هم فعلوا ذلك فللمسلمين إخراجهم.

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض، إلا أن بغضاءهم للمسلمين حملتهم على اقتراف بعض الجرائم، ففي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اغتالوا رجلاً من الأنصار واعتدوا على عبدالله بن عمر، فأخرجهم عمر[(١)].

«لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام؟ ولمصلحة من يقع هذا؟

إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف...

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئاً»[(٢)]. فسيرتهم إلى الأبد هي مزيج غريب من الحقد والكبر والدس.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب معاملة النبيّ أهل خيبر، رقم (٤٠٠٢): ١٥٥١/٤.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.



سرايا إلى القبائل

لما فرغ المسلمون من صلح الحديبية مع قريش وتم لهم النصر على اليهود في خيبر، تفرغوا للأعراب المنتشرين في الجزيرة العربية، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

سرايا النور لا النار:

كانت هذه السرايا خلال العام السابع للهجرة، وعددها عشرة سرايا بعثها النبيّ ﷺ إلى مختلف هذه القبائل لتوطيد الأمن ومنع الغارات على المدينة، وتمكين الدعاة من وظيفة الدعوة إلى الإسلام دون غدر أو خيانة.

«أفترى أن الدعاة يسيرون عزلاً في هذه البيئة التي تخطف الأموال والعقائد؟

إن العمل على توطيد الأمن شيء غير إكراه الناس على الإيمان، هدف الأول: إقصاء الضغط والفتنة على المجتمع حتى إذا آمن فرد في قبيل لم يجد من يصب عليه سوط عذاب، أما الآخر: فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة.

والسرايا التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يسيرها إلى كل فج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٤٩ ـ ٥١].

فالسعي لمعاجزة الآيات أمر خطير، ولو كانت معاجزة باللسان ما اكترث لها أحد، فهيهات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر، إنها معاجزة بالسطو والقهر، ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ . . . [الحج: ٧٢].

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل، ومنذ أمضوا عهد الحديبية وهم دائبون على البلاغ والتبصرة، ولذلك نجحوا نجاحاً ملحوظاً في هذا المضمار»[1].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٨٢ ـ ٣٨٣.



دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام

وفي هذه الفترة نفسها بعث النبيّ ﷺ كتباً إلى مختلف ملوك وأمراء العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام، وفي ذلك حكماً كثيرة أهمها:

١ ـ أن الدعوة التي بُعث بها رسول الله ﷺ إنما بعث بها إلى الناس كافة لا إلى قوم بأعيانهم، وأن رسالته إنما هي إنسانية شاملة ليس لها طابع عنصرية أو قومية أو جماعة معينة، ولذلك اتجه ﷺ بدعوته يبلغها إلى كل حكام الأرض وملوكها.

٢ ـ يدل عمله ﷺ على أنه ينبغي على المسلمين أن يهيئوا للدعوة الإسلامية في كل أرجاء الأرض وسائلها وأسبابها، ومن أهم أسباب ذلك المعرفة بلغة الأمم والأقوام الذين يقومون بدعوتهم إلى الإسلام، فقد بعث النبيّ ﷺ ستة رجال في يوم واحد، كان كل منهم يتقن لغة القوم الذين بعثه إليهم[1].

٣ ـ مما يُلاحظ بوضوح لدى قراءة هذه الرسائل أنها تتسم بما يلي:

أ ـ بدأت جميعها بالبسملة (بسم الله الرحمٰن الرحيم)، وفي ذلك معنيان مهمان:

الأول: أن هذه الدعوة ليست لشخص أو طائفة أو... إلخ، وإنما هي لله وحده لا شريك له.

---

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٣٤٥ ـ ٣٤٦، بتصرف قليل.

والثاني: أن هذه الدعوة كلها رحمة: للفرد وللمجتمع، في كل زمان ومكان، في الدنيا والآخرة.

ب ـ احتوت هذه الرسائل بعض الآيات القرآنية التي تقيم الحجة على قارئها وسامعها، وليس ثمة كلام أبلغ ولا أكمل ولا أدق ولا أجمل ولا أشد تأثيراً في العقول والنفوس لتبليغ دين الله من كلام الله، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

ج ـ جاءت هذه الرسائل خالية من أسلوب التهديد والوعيد وكل ما يشعر المدعو بأنه في حال عدم إسلامه سيتعرض للانتقام والاعتداء من طرف محمد ﷺ وأصحابه، وهذا يثبت أنه على المسلم أن يبلغ دين الله تعالى بالتي هي أحسن وليترك بعد ذلك الطرف الآخر يتحمل مسؤوليته بكل حرية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٨].

هذا في الدنيا وأما في الآخرة، فالعباد كلهم عباد الله، وهو رب الجميع، ولا يظلم أحداً، وهو أحكم الحاكمين، فمن شاء عذبه ومن شاء عفا عنه، قال الله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].





عمرة القضاء

خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه في نهاية السنة السابعة للهجرة قاصداً مكة، وهي العمرة التي تأجلت من السنة الماضية وفقاً لشروط صلح الحديبية بين المسلمين وقريش، وقد جاء المسلمون في موعدهم في ألفين، تركوا أسلحتهم خارج الحرم، ودخلوا مكة ملبين قاصدين الكعبة الشريفة.

اصطفت قريش عند دار الندوة التي كانت قريبة من الكعبة، ومنهم من صعد إلى الهضاب المطلة على الكعبة، يشاهدون موكباً ما سبق لقريش أن رأت مثله أبداً:

ألفا رجل ـ عدا الأطفال والنساء ـ بلباس واحد، وتلبية واحدة، يكسوهم الخشوع والخضوع لله الواحد، يأتمرون بأمر رجل واحد هو سيد الأولين والآخرين وخير خلق الله أجمعين ﷺ، في نظام وتناسق يأخذ بلب كل ذي لب.

أُسود كالجبال ملتفة حول رسول الله ﷺ، خشية أن تأتي ضربة طائشة من طائش على غرة، فتصيب معلم الناس الخيّر ومخرجهم من الظلمات إلى النور ﷺ.

ألفا مصباح من النور أضاءها محمد بن عبدالله ﷺ: أضاء عقولها ونفوسها بالعلم والإيمان، وأضاء جوارحها بتربيته لهم على الوقوف عند حدود الحلال والحرام.

خير من يمشي على الأرض من البشر في ذلك الزمن، وقد شهد لهم

بذلك الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فعن جابر بن عبدالله قال: «قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**»[1].

مكثوا ثلاثة أيام كما تقضي بذلك المعاهدة، ثم عادوا أدراجهم إلى مدينة النور، لم يتجاوزوا شروط المعاهدة قيد أنملة، ولا حدثتهم نفوسهم بغدر ولا خطرت ببال أحدهم حيلة للتلاعب ببنود المعاهدة، أو استغلال قوتهم في أذى أحد لا مادياً ولا معنوياً.

كما كانوا أوفياء في عبادتهم لله وطاعتهم لرسول الله، كانوا كذلك أوفياء في تعاملهم مع عباد الله.

ترك مشهد موكب النور هذا أثراً عميقاً في نفوس أولئك المشركين الذين كانوا يرقبونه من قريب أو بعيد، فكان تهيئة للنفوس ومقدمة للفتح الأعظم، بل إن أصحاب العقول السليمة والفطر النقية كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص سارعا ليلتحقا بالمسلمين في المدينة ويشهرا إسلامهما قبل فتح مكة.



---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٣٩٢٣): ١٥٢٦/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، رقم (١٨٥٦): ١٤٨٤/٣.



غزوة مؤتة

سببها:

اجتمعت عدة أسباب لهذه المعركة:

ـ دأبت قبيلة كلب من قضاعة التي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة.

ـ قام رجال من جذام ولخم بقطع الطريق على دحية بن خليفة الكلبي الذي أرسله النبيّ ﷺ في مهمة، واستلبوا كل ما معه.

ـ اعتدت قبيلتا مذحج وقضاعة على زيد بن حارثة وصحبه عندما ذهبوا إلى وادي القرى للدعوة إلى الله.

وأهم هذه الأسباب أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ـ فأوثقه وقتله.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب.

ـ كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ﷺ، وهدد بإعلان الحرب على المدينة.

ـ بعد سنة من ذلك بعث رسول الله ﷺ سرية للدعوة إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح)، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام وأحاطوا بالدعاة فقتلوهم جميعاً إلا أميرهم استطاع النجاة.

ـ قام نصارى الشام بدعم من الإمبراطورية الرومانية بالاعتداءات على مَن يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام.

كانت هذه الأحداث كلها خصوصاً مقتل سفير رسول الله ﷺ، باعثاً للمسلمين ليضعوا حداً لهذا العدوان المتكرر، ولتأمين الطريق للدعاة والتجار، فجهز إليهم النبيّ ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[1].

وصية رسول الله ﷺ لأمراء الجيش:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أمّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **«إن قُتل زيدٌ فجعفر، وإن قتل جعفر فعبدالله بن رواحة»**»[2].

وأوصاهم أن يأتوا المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه، ويدعوا من هناك للإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

وزوّد النبيّ ﷺ الجيش في هذه السرية كما في غيرها بوصايا تتضمن آداب القتال في الإسلام، فقال: **«أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا بسم الله في سبيل الله مَن كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأةَ، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجراً، ولا تهدموا بناءً»**[3].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، المباركفوري: ص٤٥٩، السيرة النبوية، الصلابي: ٤٥٧/٢ ـ ٤٥٨، المسلمون والروم في عصر النبوة، عبدالرحمٰن أحمد سالم: ص٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، رقم (٤٠١٣): ١٥٥٣/٤.

(٣) انظر: مختصر سيرة الرسول، عبدالله النجدي: ص٣٢٧، رحمة للعالمين: ٢٧١/٢، المغازي: ٧٥٧/٢ ـ ٧٥٨.

إنهم يحملون الإسلام للناس جميعاً، ولا يجوز لهم أن يحتكروه لأنفسهم أو يبخلوا به عن أحد، بل إنهم يعرّضون حياتهم للخطر من أجل أن ينعم عباد الله بالحياة في ظل دين الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

إن من يقف عند مجموعة الأمور التي نهى النبيّ ﷺ أن تُمس بسوء: «**لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجراً، ولا تهدموا بناءً**»، يعلم أن المجاهد المسلم لا يقاتل إلا من حمل السلاح في وجهه وقاتله، وهذا لا شك أنه لا يريد أن يهتدي ولا يريد أن يترك هدى الله يصل إلى الآخرين، ومن كان كذلك فلا بد أن يزاح من الطريق كي تصل هداية الله تعالى إلى الناس.

ولو أنه أبى أن يهتدي وترك الأمر بين الدعاة والناس فليس لأحد أن يقاتله، فهو وشأنه، قال الله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

ولو قارنا هذه النواهي بما فعله إنسان الحضارة الغربية المعاصرة في الحربين العالميتين الأولى والأخيرة، وما فعله أثناء الاستدمار الغربي الحديث للبلدان الضعيفة، وما يفعله الآن في فلسطين والعراق وغيرهما، لو قارنا بينهما لوجدنا البون شاسعاً ولا مجال للمقارنة مطلقاً: كم قتلت فرنسا في الجزائر وحدها؟ وماذا فعلت القنبلتان النوويتان في اليابان؟ وكم خلفت الحربان العالميتان من قتيل وجريح ويتيم وأرملة ومعوق... إلخ؟! ناهيك عن الدمار الذي لحق بالمنشآت المادية للبلدان الضعيفة التي وقعت فريسة للأقوياء.

وفوق ذلك كله ما هي الأهداف النبيلة من وراء تلك الحروب المدمرة للعباد والبلاد؟ ليس لها هدف شريف واحد، إنما أهدافها هي السيطرة ونهب

الثروات وانتهاك الأعراض، ودوافعها هي الأحقاد القديمة المدنسة، وإشباع غرور المغرورين، واستجابة لعقد الحمقى ومجانين العظمة!

أين هذه الدوافع الخسيسة والأهداف الرخيصة التي تملأ عقل وضمير الإنسان الغربي الديمقراطي! من دوافع وأهداف الفاتح الإسلامي: «**قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**»؟

أكبر معركة في عصر النبوة:

هذه أكبر معركة من حيث العدد وقعت في عهد النبوة بين المسلمين وغيرهم: ثلاثة آلاف مسلم يقاتلون مائتي ألف من الروم ونصارى العرب، فعن أبي هريرة قال: «شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع... فقال لي ثابت بن أرقم: «يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعاً كثيرة؟»، قلت: نعم. فقال ثابت: «إنك لم تشهد بدراً معنا، إنا لم ننصر بالكثرة»»[1].

والتقى الجمعان، وحمل زيد بن حارثة راية المسلمين، واستبسل في القتال حتى استشهد، ثم حمل الراية جعفر بن أبي طالب وانبرى يتصدى لجموع المشركين، لم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة، فكثفوا حملاتهم عليه إلى أن استشهد، ثم حمل الراية عبدالله بن رواحة واستمر في القتال والإقدام إلى أن استشهد في آخر النهار[2].

القيادة للأكفأ:

حينئذٍ تقدم ثابت بن أرقم فأخذ الراية وقال: «يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم»، قالوا: «أنت»، قال: «ما أنا بفاعل»، فاصطلح الصحابة على خالد بن الوليد، وقاتل هذا البطل الموفق قتالاً مريراً، فعنه

(١) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٣٩٧.

(٢) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١، السيرة النبوية، الصلابي: ٢/٤٥٩ ـ ٤٦١.

قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[1]، وعن أنس ﷺ أن النبيّ ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب** ـ وعيناه تذرفان ـ **حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم**»[2].

«والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حداً لم تعرفه أمة معاصرة، وقد أكسبهم هذا الروح العالي إقداماً حقّر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهراً تصول وتجول لا يوقفها شيء... أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟»[3].

«وثابت أبى القيادة لا نكوصاً عن الموت بل شعوراً بوجود الأكفأ منه في الجماعة، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب.

وليت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته»[4].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، رقم (٤٠١٧): ١٥٥٤/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، رقم (٤٠١٤): ١٥٥٣/٤.

(٣) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٤٠٠.

(٤) المرجع نفسه: ص٣٩٨.



سرية ذات السلاسل

سببها:

كانت قبيلة قضاعة إلى جانب الروم في معركة مؤتة، فغرها ما لمست من ضعف المسلمين حين انسحبوا، فتجمعت تريد غزو المدينة، فأرسل إليهم النبيّ ﷺ جيشاً قوامه ثلاثمائة رجل بقيادة عمرو بن العاص، ولما أحس عمرو بكثافة أعدائه طلب المدد، فأمده النبيّ ﷺ بمائتي مقاتل يقودهم أبو عبيدة بن الجراح، وكان ذلك بعد عودة المسلمين من مؤتة بأيام، في جمادى الآخرة سنة ٨هـ.

ونجح المسلمون في التوغل في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت، ورجع حلفاء المسلمين لصداقتهم الأولى، وانضمت قبائل أخرى لحلف المسلمين، وأسلم الكثير من بني عبس وبني مرة وبني ذبيان وفزارة وبنو سليم وبنو أشجع، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب.

إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

عن عمرو بن العاص قال: «بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني**»، فأتيته وهو يتوضأ فصعّد فيّ البصر ثم طأطأ فقال: «**إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة**»، فقلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال:

«يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح»[1].

«فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله ﷺ، وقد بيّن له رسول الله ﷺ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويَعُفُّ به نفسه وأسرته»[2].

إن معلمهم وقائدهم محمد ﷺ هو أول من عُرضت عليه الدنيا بمالها وجاهها وزخارفها مقابل أن يتخلى عن دعوته للإسلام، فقال قولته المشهورة التي ما يزال صداها يتردد في أذن الزمن: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»**[3].

لقد علّمهم بلسان مقاله وحاله الزهد في الدنيا والتنافس على الآخرة، ورباهم بمثل قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ۝١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص: ٦٠].

إن هذا الجيل الطاهر باع واشترى مع الله، وربح البيع حقاً: باع نفسه ودنياه لله واشترى الله تعالى منهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ

---

(١) أخرجه أحمد في مسند: ١٩٧/٤، والطبراني في المعجم الأوسط: ٢٣/٩، والبخاري في الأدب المفرد، رقم (٢٩٨): ١١٢/١، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) التاريخ الإسلامي، الحميدي: ١٣٣/٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ١٠١/٢، تاريخ الطبري: ٥٤٥/١.

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما لحق أبو عبيدة بعمرو بن العاص أراد أن يؤم المسلمين، فقال عمرو: «إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير»، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان حسن الخلق لين الطبع، فقال: «لتطمئن يا عمرو وتعلمن أن آخر ما عهد إليّ رسول الله أن قال: «**إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا**»، وأنك والله إن عصيتني لأطيعنك»[1].

«لقد أدرك أبو عبيدة ﷺ أن أي اختلاف بين المسلمين يؤدي إلى الفشل، ومن ثم يتغلب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص، امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: «**لا تختلفا**»[2].

إنها وصية القرآن الكريم لكل مسلم في كل زمان ومكان وفي كل شأن، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

ووصية رسول الله ﷺ، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبيّ ﷺ حين بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن قال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[3].

لقد فقه السلف الصالح ذلك فنفعهم الله به، فهل يفقهه الخلف؟

ما أحوج المسلمين في كل زمن للأخذ بهذه التوجيهات الربانية

---

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٠٥/٢، مغازي رسول الله، عروة: ص٢٠٧.

(٢) غزوة الحديبية، أبو فارس: ص٢٠٩.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٢٨٧٣): ١١٠٤/٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣): ١٩٥٣/٣.

والنبوية، وهم أحوج ما يكونون إليها في زماننا هذا الذي تداعت وتكالبت فيه الأمم الظالمة علينا، في الوقت الذي تمر فيه الأمة المسلمة بسقم شديد على جميع الأصعدة! قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

دين الله يُسر ورحمة:

عن عمرو بن العاص قال: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «**يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟**»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال رجاء إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً»[1].

وفقه عمرو في هذه المسألة صحيح بدليل إقرار النبيّ ﷺ له على اجتهاده، ويدل ذلك على فطرته السليمة وسرعة فهمه للإسلام واهتمامه بأحكامه.

وقد اعتمد عمرو في اجتهاده على سليقته السليمة في فهمه للمصدر الأول للتشريع، وهو القرآن الكريم الذي جذبه أول الأمر وأغراه بالدخول في الإسلام، دين اليسر ورفع الحرج والأغلال التي كانت عليهم في الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إن قاعدة اليسر ورفع الحرج في ديننا مهمة جداً وقد أولاها

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، باب إذا خاف الجنب البرد يتيمم، رقم (٣٣٤): ٩٢/١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الأصوليون والفقهاء اهتماماً بالغاً، وحُق لهم ذلك، فلو بنينا حياتنا وعلاقاتنا فيما بيننا نحن المسلمين ومع غير المسلمين على غرار هذه القاعدة، وتركنا التشدد والتنطع في فهمنا للدين وفي تطبيقنا له، لو فعلنا ذلك لوفّرنا على أنفسنا جهوداً وأوقاتاً كبيرة، وكسبنا أصدقاءَ في كثير من أنحاء العالم، بدل الخصومات التي جرّت علينا الويلات والاتهامات بأبشع الصفات، وديننا منها براء، بل ينهى عنها، ويأمر بعكسها: يحب الرفق في الأمر كله ويأمر به، وينهى عن الغلظة والخشونة في الطباع والسلوك، ويحب الجمال في كل شيء ويأمر بالتزين والنظافة، ويحرم النجاسة وينهى عن الوسخ... إلخ.

ولو أخذنا بهذه القاعدة الجليلة في سلوكنا ومعاملاتنا لقدمنا أيضاً صورة مشرقة عن الإسلام، تسر الناظرين والسامعين، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة، كلها تؤكد بما لا مجال للريب فيه أن الإسلام دين اليسر والسهولة، والرحمة واللطف، وكل شيء سبب للإنسان مشقةً وعنتاً في أمور دينه أو دنياه فثمة رخصة الله تعالى التي تزيل الضنك عن عبده، قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»**[١].



(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس، رقم (٣٥٤): ٦٩/٢.



الفتح الأعظم (فتح مكة)

سببه:

ارتكبت قريش حماقة كبيرة، وذلك أنها مع حلفائها من بني بكر قاتلوا خزاعة، وهي مع المسلمين في حلف واحد، فهجموا عليهم ليلاً وقتلوا منهم رجالاً، ففرت خزاعة إلى الحرم، إذ لم تكن متأهبة لحرب، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم، وقريش تمدهم بالسلاح والرجال وتعينهم على البغي.

فبعثت خزاعة إلى رسول الله ﷺ (عمرو بن سالم) يخبره بما أصابهم، فقال له رسول الله ﷺ: **«نُصرت يا عمرو بن سالم»**[(١)].

أمر النبيّ ﷺ المسلمين أن يتجهزوا للسير إلى مكة وأوصاهم بالكتمان، وقال: **«اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش، فلا يرونا إلا بغتة»**[(٢)].

وخرج يوم العاشر من رمضان سنة ٨هـ، وأرسل إلى من حوله من العرب، والتقوا جميعاً في الظهران وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف.

وهكذا وفي كل مرة نتبين أن سبب الحرب هو الطرف الآخر غير

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى: ٢٣٣/٩، والزيلعي في نصب الراية: ٣٩٠/٣. وانظر: تاريخ الطبري: ١٥٤/٢.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٥٢/٥، تاريخ الطبري: ١٥٥/٢، عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢١٦/٢.

المسلمين، ونقض معاهدة السلم هذه المرة من طرف حلفاء قريش يعني العودة إلى حالة الحرب، وفي هذه الحال فلكل طرف أن ينتهز غفلة من الآخر ليباغته.

ومع ذلك فإنه يروى أن النبيّ ﷺ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «**أما بعد، فإنكم إن تبرأوا من حلف بني بكر، أتدوا خزاعة، وإلا أوذنكم بحرب**»، فأبوا ذلك وقالوا: «بل نحن نؤذنه بحرب»[1].

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشاً بالحرب وإنما خيّرهم فاختاروا الحرب[2].

إحباط محاولة تجسس:

كتب حاطب بن أبي بلتعة برسالة إلى قريش يخبرهم أن النبيّ ﷺ متوجه إليهم وبعث الرسالة مع امرأة، وأوحى الله تعالى بذلك إلى نبيه، فأرسل علياً والزبير والمقداد فلحقوا المرأة ونزعوا منها الرسالة، وفشلت المحاولة.

حضر حاطب أمام النبيّ ﷺ وسأله عن فعله، فاعترف واعتذر، وطالب عمر بن الخطاب بقتله، غير أن النبيّ ﷺ قبل عذره وقال لعمر: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على مَن شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3]، ونزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

---

(١) انظر: المطالب العالية: ٢٣٤/٤.

(٢) التاريخ الإسلامي، الحميدي: ١٦٤/٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن علي، كتاب المغازي، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥): ١٠٩٥/٣.

فالآية بينت أن حاطباً مؤمن، ووضحت أنه لا تجوز موالاة وصداقة الكفار المحاربين.

«إن ما قام به حاطب أمر عظيم، ولذلك نزل القرآن الكريم يوجه المجتمع الإسلامي إلى ما يجب عليهم فعله نحو أعداء دينهم، كما أن النبيّ ﷺ عامل حاطباً معاملة رحيمة تدل على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم.

لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه، وهذا منهج نبوي حكيم، فلم ينظر النبيّ ﷺ إلى حاطب من زاوية مخافته تلك فحسب وإن كانت كبيرة، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز دينه، فوجد أنه قد شهد بدراً.

وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة والجهاد والعلم والتربية»[١].

لا يجوز تعذيب المتهم:

حينما لحق علي والزبير والمقداد بالمرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب إلى قريش، طلبوا منها أن تعطيهم الرسالة فأنكرت، فقال لها علي: «لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لنلقين الثياب»، فأخرجته من عقاصها.

وهناك حادثة شبيهة بهذه حصلت أثناء غزوة خيبر، حيث روي أن اليهود غيبوا أموالاً لحيي بن أخطب، فقال رسول الله ﷺ لعمه: «**ما فعل مَسك**[٢] **حيي الذي جاء به من النضير؟**»، فقال: «أذهبته النفقات والحروب». فقال: «**العهد قريب والمال أكثر من ذلك**». فدفعه رسول الله ﷺ

---

(١) التاريخ الإسلامي، الحميدي: ١٧٦/٧.

(٢) المسك: وعاء من الجلد.

إلى الزبير فمسه بعذاب، فقال لهم: «**قد رأيت حيي يطوف بخربة هنا**»، فذهبوا فوجدوا المسك في الخربة.

والحق الذي عليه كل الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، أنه لا يجوز تعذيب المتهم الذي لم تثبت عليه الجريمة، حملاً له على الإقرار، فالمتهم بريء ما لم تثبت جريمته.

وتهديد علي لتلك المرأة ليس من هذا لسببين:

١ ـ ليست تلك المرأة مجرد متهمة بما وجهت به، بل هي حقيقة ثابتة دل عليها إخبار النبيّ ﷺ. وكذلك الأمر بالنسبة لعم حيي بن أخطب.

٢ ـ ليس إلقاء الثياب للتفتيش عن الكتاب كالتعذيب أو الحبس، وإذا ثبت أن الكتاب معها ولم يمكن الحصول عليه إلا بالتنقيب في ثيابها، فذلك أمر مشروع استلزمه أمر رسول الله ﷺ.

وأما تعذيب الزبير لعم حيي، فهو قائم على الحقيقة لا التهمة، ثم هو متعلق بأمر الجهاد والحرابة بين المسلمين وغيرهم.

ومن ثم فلا يقاس تعامل المسلمين بعضهم مع بعض على هاتين الحادثتين[1].

حرص المسلمين على السلم وإسلام أبي سفيان:

تابع المسلمون سيرهم نحو مكة حتى نزلوا بمر الظهران[2] عشاء، وأرسلوا العيون حتى يتمكنوا من مفاجأة قريش فتستسلم دون مقاومة، لكي تفتح مكة سلماً.

قال العباس: «قلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر».

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٢) واد شمال مكة بـ(٢٢) كلم.

وكان العباس ممن خرج يستطلع الأمور، وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا من طرف قريش يلتمسون الأخبار، فألقى حرس المسلمين القبض على أبي سفيان وصاحبيه، وجاء العباس بأبي سفيان معه يطلب له الأمان عند رسول الله ﷺ، ولحقه عمر بن الخطاب مسرعاً فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد دعني أضرب عنقه. قال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته. فقال رسول الله ﷺ: **«اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»**.

لما جاءه به في الصباح قال له النبيّ ﷺ: **«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله؟»**، قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلٰه غيره لقد أغنى عني بعد». قال: **«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»**، قال: «بأمي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً». فقال له العباس: «ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك». قال العباس: فشهد شهادة الحق فأسلم.

قال العباس: «قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً»، قال: **«نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن»**.

وأمر به النبيّ ﷺ أن يقف بمكان يمر به جيش المسلمين حتى يتأكد قوة جند الله، ولما رأى أبو سفيان تلك الأعداد الهائلة تسير في تنظيم دقيق وحزم وعزم لو أرادوا قلع الجبال الراسيات لقلعوها، قال للعباس: «والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً»، فقال له العباس: «يا أبا سفيان، إنها النبوة». قال أبو سفيان: «فنعم إذن»[1].

---

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٢٠/٢، تاريخ الطبري: ١٥٨/٢، سيرة ابن هشام: ٦٠/٥.

نعم، انتهى ابن حرب الذي كان دوماً حرباً على رسول الله وعلى دين الله، وهو الذي لم تخرج غزوة من مكة لحرب الإسلام والمسلمين إلا بإشرافه وتوجيهه وتهييجه!

والعجيب أن يكون هو طليعة المحذرين لقومه من قتال رسول الله ﷺ، وأن يكون في مقدمة الداخلين في دين الله أفواجاً يومئذٍ!

سر ذلك هي معاملة النبيّ ﷺ السمحة والكريمة له، فبعد أن أصبح رهينة في يد المسلمين وجيء به ليمثل بين يدي النبيّ ﷺ، فقد كان يتوقع التوبيخ والإذلال وكل شر، فإذا بالنبي ﷺ يغض الطرف عن ماضيه السيِّئ ويدعوه إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه وصحا عقله وضميره، فتخلى عن غيه وعاد إلى رشده، فلم يملك أن يقول: «بأبي أنت وأمي يا محمد».

إنه يفدي رسول الله ﷺ بأبيه وأمه! وهذه الكلمة في تقاليد العرب آنذاك لا يقولها الإنسان إلا في حق من صارت مكانته في القلب أكبر من مكانة الأم والأب.

ثم يقر أبو سفيان بهذه الشهادة لرسول الله ﷺ: «ما أحلمك وأكرمك وأوصلك»! هذه هي ثمرة الأخلاق الإسلامية التي جاء بها الإسلام وجسدها النبيّ ﷺ واقعاً ملموساً يمشي بين الناس، ولقد سئل النبيّ ﷺ يوماً: «أي الناس أحب إلى الله يا رسول الله؟»، قال: **«أحب الناس إلى الله أحسنهم خُلقاً»**[1].

وفي قول العباس للنبيّ ﷺ: «إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً»، فقال له النبيّ ﷺ: **«نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»**، وفي تخصيص أبي سفيان بالذكر إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه، وتثبيت له على الإسلام، وامتصاص للغضب والحقد من قلبه، وبرهان له

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أسامة بن شريك، رقم (٤٨٦): ٢٣٧/٢.

على أن المكانة التي كانت له في قومه، لن تنتقص في الإسلام إن هو صدق وأخلص[1].

فالإسلام لم يأت ليحط من مكانة الإنسان بل جاء ليرتفع به، ولم يأت ليسلبه شيئاً إيجابياً كان عنده بل جاء ليعطيه خيري الدنيا والآخرة، ولم يأت ليضع القيود على الأيدي والعقول بل جاء لتحرير الأيدي من قيود الرق ووجهها إلى الحركة في الكون كله، وتحرير العقول من الجهل والهوى والوهم والخرافة، وتحرير النفوس من العقد والشهوات.

«إنها النبوة، تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلٰهية على لسان العباس، حتى تصبح الرد الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبيّ ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض»[2].

أبو سفيان يعين على فتح مكة سلماً:

عندما اقترب المسلمون من مكة، وزعهم النبيّ ﷺ على كتائب عدة، ليدخلوا مكة من أماكن مختلفة، حتى لا تلجأ قريش إلى المواجهة فتستسلم، وأوصاهم ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وبالفعل فقد دخل المسلمون مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد.

ودخل أبو سفيان مكة مسرعاً، وهو يصرخ بأعلى صوته: «فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: «اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم». قال: «ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار

---

(١) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٣٦٩ ـ ٣٧٠، السيرة النبوية، الصلابي: ٤٨٩/٢ ـ ٤٩٠.

(٢) فقه السيرة، البوطي: ص٣٧٢.

أبي سفيان فهو آمن». قالوا: «قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟»، قال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[1].

«لقد كان من التدبير الحكيم لرسول الله ﷺ ما أمر أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة... وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك، إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم في جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها.

وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك حقناً للدماء ما أمكن، وحفظاً لمعنى السلامة والأمن في البلد الحرام، ومن أجل هذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأعلن أن من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن»[2].

أما زعماء قريش فقد فت في عضدهم وأوهن عزائمهم عن التصدي للمسلمين أبو سفيان حين حذرهم قائلاً: «يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به».

وأما الأتباع الذين خرجوا ينتظرون التوجيه من زعمائهم لمقاومة المسلمين، فقد وجدوا أن الزعيم الأكبر لقريش هو أول من سبقهم للدخول في الإسلام!

دخول خاشع متواضع، لا دخول غالب متعال:

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبيّ ﷺ لمكة: «وأصبحت أم القرى وقد قيّد الرعب حركاتها، واسترخت تجاه القدر المنساق إليها، فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون وهم واجمون.

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم، ورسول الله على ناقته، تتوج

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٦٢/٥، عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٢١/٢.

(٢) فقه السيرة، البوطي: ص٣٧٤.

هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كاد ذقنه يمس واسطة الرحل.

إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن.

إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً! وأي كرامة عظمى حفّه الله بها في هذا الصباح الميمون! وكلما استشعر هذه النعماء ازداد على راحلته خشوعاً وانحناءً»[1].

البر والوفاء:

قال ابن هشام: «... ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال: «يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلَّى الله عليك»، فقال رسول الله ﷺ: **«أين عثمان بن طلحة؟»**، فدعي له، فقال: **«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**[2]، **خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»»**[3].

إن مفتاح الكعبة له معان عميقة جداً في التاريخ، وله معان توحي بالقوة والسلطة، ومعان تشير إلى المكانة الاجتماعية بين الناس والسيادة... إلخ.

وهذا المفتاح منذ الجاهلية وهو في حوزة عثمان بن طلحة وعشيرته، ولقد كان عثمان بن طلحة من أشد الناس عداوة للإسلام وأكثرهم أذى لرسول الله ﷺ.

وها قد أصبح محمد ﷺ منتصراً، فما عساه يفعل بك يا عثمان؟ وها

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٤١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٧٤/٥. وانظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٣١/٢.

(٣) المغازي: ٨٣٨/٢.

هو المفتاح الذي طالما طلبه منك لتفتح له بيت إبراهيم يعبد فيها ربه، فكنت تحرمه منه وتستهزئ به، ها هو ذا مفتاح الكعبة بيده الشريفة ﷺ.

أي مصير تتوقعه لنفسك ولمفتاحك؟ وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يترجى النبيّ ﷺ أن يعطيه المفتاح!

خذ المفتاح يا عثمان بن طلحة، وليكن في ورثتك من بعدك إلى يوم القيامة، وحرام على أي مسلم أن يأخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة أم من نسله بعده.

مرسوم نبوي غير قابل للطعن ينفذ فوراً! فلتتعلم البشرية من أستاذها خلق البر والوفاء.

وبناءً عليه «فقد ذهب عامة العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن ينتزع حجابة البيت وسدانته منهم ـ أي: بني عبد الدار وبني شيبة ـ إلى يوم القيامة. قال النووي نقلاً عن القاضي عياض: «هي ولاية لهم عليها من رسول الله ﷺ فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبداً ولا ينازعون فيها ولا يشاركون ما داموا موجودين صالحين لذلك». أقول: وهي لا تزال اليوم في أيديهم طبق وصية النبيّ ﷺ وأمره»[1].

إعلان العفو العام:

اجتمع أهل مكة قرب الكعبة يرقبون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقام رسول الله ﷺ فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**»، ثم قال: «**يا معشر قريش، ما تروني أني فاعل بكم؟**»، قالوا: «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم». قال: «**أقول ما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2].

---

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٣٨١.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٧٣/٥ ـ ٧٤، تاريخ الطبري: ١٦١/٢، الجامع الصغير، السيوطي، رقم (٣٦٨): ٢٢٠/١.

نال أهل مكة عفواً عاماً رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ وأصحابه، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل وحفظ الأموال بيد أصحابها، ذلك أن مكة هي دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى(١).

وكانت نتيجة هذا العفو العام:

الدخول العام في الإسلام:

أثرت كلمات النبيّ ﷺ في العقول والنفوس أيما تأثير، فراجع الناس ماضيهم، وتأملوا حاضرهم، ثم اجتمعوا لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله.

ودخل أهل مكة في دين الله أفواجاً طواعيةً واختياراً: رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً، فبدأ النبيّ ﷺ ببيعة الرجال، فلما فرغ بايع النساء(٢).

وعن عائشة ﵂ قالت: «كان النبيّ ﷺ يبايع النساء بالكلام، بهذه الآية: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾»، قالت: «وما مست يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة إلا امرأة يملكها»(٣).

يقول محمد الغزالي: «سيرة هذا الرجل النبيل ـ أي: محمد ﷺ ـ هي المثل الكامل لكل إنسان يبغي الحياة الصحيحة، إن محمداً إنسان يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له، وهو يهيب بكل ذي عقل أن يُقبل على الخير، وأن ينشط إلى مرضاة وليّ أمره ووليّ نعمته، فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة رقيقة»(٤).

إن الأخلاق الفاضلة يسري مفعولها في النفوس بشكل سريع،

---

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي: ٤٩٨/٢.
(٢) انظر: تاريخ الطبري: ١٦١/٢ ـ ١٦٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب بيعة النساء، رقم (٦٧٨٨): ٢٦٣٧/٦.
(٤) فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٤١٧.

فتحول العدو اللدود إلى صديق حميم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

ويقول البوطي مبيناً سنّة الله في النصر: «الآن، وقد تأملت أحداث هذا الفتح الأكبر، تستطيع أن تدرك تماماً قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي تمت من قبله. إن شيئاً من ذلك لم يذهب بدداً، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدراً، ولم يتحمل المسلمون كل ما لاقوه، مما قد رأيت في غزواتهم وأسفارهم، لأن رياح المصادمات فاجأتهم بها، ولكن كل ذلك كان جارياً وفق حساب، وكل ذلك كان يؤدي أقساطاً من ثمن الفتح والنصر، وتلك هي سنّة الله في عباده: لا نصر بدون إسلام صحيح، ولا إسلام بدون عبودية له، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله»(١).

أمثلة من عفو النبيّ ﷺ وحلمه وكيفية تعامله مع الثلاثي العنيد:

سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، من صناديد قريش عُرفوا ببطشهم وعنادهم وكراهيتهم الشديدة لرسول الله ﷺ والمسلمين، قادوا مقاومة ضد جيش الفتح الإسلامي، وسرعان ما هزمتهم الفرقة التي كان يقودها خالد بن الوليد، واستسلم أهل مكة ثم أسلموا وبايعوا، غير أن هذا الثلاثي العنيد رفض أن يسلم وسلك كل منهم مسلكاً:

١ ـ **سهيل بن عمرو**: لما فُتحت مكة اختفى في بيته ودخله رعب كبير خشية أن يُقتل، وجعل يتذكر ماضيه الذي ملأه إساءة للإسلام والمسلمين، ويكفي أنه هو الذي أملى تلك الشروط القاسية في صلح الحديبية، وما تحركت قريش ضد المسلمين إلا وكان عنصراً بارزاً فيها.

وها هو ابنه عبدالله ـ ذاك الذي هرب من قريش يجر قيوده إلى

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٣٦٤.

المسلمين بالحديبية فوجد الاتفاقية قد تمت، وأعاده أبوه هذا إلى سجنه بمكة ـ يأتي النبيّ ﷺ يطلب الأمان لأبيه فقال: «يا رسول الله، تؤمنه؟»، فقال رسول الله ﷺ: **«نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر»**. وخرج سهيل بن عمرو من بيته، وبقي على شركه إلى أن أسلم بعد حنين بالجعرانة.

لم يأت سهيل بن عمرو مسلماً وإنما طلب له ابنه الأمان فقط، ومع ذلك فلم يثأر منه النبيّ ﷺ، ولم يكرهه على الإسلام، بل صفح عن ماضيه الأسود وأمّنه وترك له من الوقت ما يشاء، ليفكر بكل حرية ويتخذ القرار الذي يرضاه بكامل إرادته، فإن شاء أسلم وإن شاء بقي على شركه.

لقد دخل في الإسلام وحسن إسلامه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة[١].

٢ ـ **صفوان بن أمية**: عن عروة بن الزبير قال: «خرج صفوان بن أمية هارباً، فقال عمير بن وهب[٢]: «يا نبيّ الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه صلّى الله عليك»، قال: **«هو آمن»**، قال: «يا رسول الله، أعطني شيئاً يُعرف به أمانك»، فأعطاه عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة وهو يريد أن يركب البحر، فقال: «يا صفوان، فداك أبي وأمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله قد جئتك به»، قال: «ويلك اغرب عني فلا تكلمني»، قال: «أي صفوان، فداك أبي وأمي جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمتك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك»، قال: «إني أخافه على نفسي»، قال: «هو أحلم من ذلك وأكرم».

فرجع به معه حتى قدم به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: «إن

---

(١) انظر: مغازي الواقدي: ٨٤٦/٢ ـ ٨٤٧، التاريخ الإسلامي للحميدي: ٢١٦/٧ ـ ٢١٧.

(٢) هو الذي كان يسمى قبل إسلامه بـ: شيطان قريش، وتحمل صفوان بن أمية ديونه والنفقة على عياله وشجعه على الذهاب إلى المدينة لقتل النبيّ ﷺ.

هذا زعم أنك قد أمنتني»، قال: «**صدق**»، قال: «فاجعلني في أمري بالخيار شهرين»، قال: «**أنت فيه بالخيار أربعة أشهر**»[(١)].

وفي صحيح مسلم: «أعطى رسول الله ﷺ يومئذٍ[(٢)] صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، فقال صفوان: «والله، لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغض الناسَ إلي فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي»»[(٣)].

وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ في شوال سنة ثمان جهة هوازن بحنين فأرسل إلى صفوان بن أمية يستعير منه أداةً وسلاحاً عنده، فقال صفوان: «أطوعاً أم كرهاً؟»، فقال: «**بل طوعاً، عارية مضمونة حتى نردها إليك**»، فقال: «ليس بهذا بأس»، فأعاره الأداة والسلاح التي عنده.

ثم خرج صفوان مع رسول الله ﷺ فشهد حنيناً والطائف وهو كافر، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شِعْب مُلئ نَعَماً وشاءً ورعاءً، فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟**»، فقال: «نعم»، قال: «**هو لك وما فيه**»، فقال صفوان: «ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبيّ، أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»[(٤)].

وهكذا حاول النبيّ ﷺ أن يكسب صفوان بن أمية لصالح الإسلام بشتى الأساليب الحسنة، فأعطاه الأمان ثم أعطاه من الأموال ما لم يعطه إياه

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٦٢/٢.

(٢) أي: عندما انتصر المسلمون في غزوة حنين.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن شهاب، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، وكثرة عطائه، رقم (٢٣١٣): ١٨٠٦/٤.

(٤) انظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ٢٠٣/٣، مغازي الواقدي: ٨٥٣/٢ - ٨٥٥.

والده، فتيقن أن هذا نبيّ مرسل من عند الله تعالى، وعندها أسلم لله رب العالمين.

سؤال وجوابه:

أورد الشيخ محمد الغزالي سؤالاً لبعض المستشرقين حول معاملة النبيّ ﷺ لصفوان بعكس معاملته لليهود، وأجاب عليه، فقال:

«يقول بعض المستشرقين: لِمَ لم يعامل زعماء اليهود بهذه السماحة؟ ونجيب: بأن صفوان وأشباهه كانوا في عماية من أمرهم، وما انشرحت صدورهم للإيمان إلا بعد فترة طويلة أو قصيرة، أما زعماء اليهود فكانوا يعرفون النبيّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك فقد ظاهروا عليه الوثنيين مفضلين الشرك على التوحيد، ومرجحين مصالحهم الجنسية على الأرض والسماء، فكيف يترك هؤلاء؟»[1].

٣ ـ **عكرمة بن أبي جهل**: لم يكن عكرمة خيراً من أبيه حتى فتح مكة، بل إن عكرمة وصفوان وآخرين من ذوي الشراسة والتعصب رفضوا السلام الممنوح لأهل مكة، وقرروا المقاومة لآخر رمق، فلما يئس من النتيجة ترك جزيرة العرب فاراً إلى أرض أخرى.

عن عبدالله بن الزبير قال: «لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عاقلة أسلمت ثم سألت رسول الله ﷺ أن يؤمنه، فقال: «**هو آمن**»، فخرجت في طلبه، وأدركته وقد انتهى إلى الساحل وركب البحر، فجعل صاحب السفينة يقول له: «أخلص»، فقال: «أي شيء أقول؟»، قال: «قل: لا إلـٰه إلا الله». قال عكرمة: «ما هربت إلا من هذا»، فجاءت زوجته فجعلت تلح عليه وتقول له: «جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، فلا تهلك نفسك، وقد استأمنت لك محمداً ﷺ فأمّنك»، فرجع معها.

---

(١) علل وأدوية: ص١١٩.

فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت**»، فلما بلغ باب رسول الله ﷺ استبشر ووثب له رسول الله ﷺ قائماً على رجليه فرحاً بقدومه، فوقف بين يديه وقال: «يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك أمّنتني»، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت، فأنت آمن**»، فقال عكرمة: «فإلى ما تدعو يا محمد؟»، قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، . . .**»، فقال عكرمة: «والله، ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً».

ثم قال عكرمة: «فإني أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»، فَسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ ثم قال: «**لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه**»، فقال عكرمة: «فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها»، فقال رسول الله ﷺ: «**اللّٰهم اغفر له كل عداوة عادانيها**»، فقال عكرمة: «رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة أنفقتها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت قاتلته في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله»[1].

كان سلوك النبيّ ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد ابتسم له ورحب به، فتأثر عكرمة لذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه فأسلم، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب شيئاً من أمور الدنيا وإنما طلب المغفرة، ثم أقسم أن ينفق في سبيل الله ضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يبلي في الجهاد في سبيل الله ضعف ما كان يبليه في الجاهلية.

ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى

---

(١) انظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم: ٢٦٩/٣، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ٢٠٤/٣.

في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله[1].

وهكذا تحول هذا الثلاثي العنيد إلى عباد لله صالحين، وجنود في سبيل الحق مُضَحِّين، وانضموا إلى إخوانهم المؤمنين متحابين متعاونين، تلك هي أخلاق المصطفى ﷺ التي أحدثت فيهم هذا الانقلاب التام، وكذلك تفعل الأخلاق الإسلامية في كل زمان ومكان، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

«إن النبيّ ﷺ المنتصر لم يكن طالب ثأر، ولا ناشد قصاص، كانت الرغبة المستولية عليه أن يفتح أقفال القلوب، وأن يهدي التائهين الحيارى، وأن يعالج الأخطاء القديمة بالرفق، وأن يلقى الأحقاد بالعفو، وأن يحبب الناس في الإسلام، وأن تقر عيناه برؤيتهم يدخلون فيه أفراداً أو أفواجاً.

إنه رحمة مهداة، إنه رسول يقود العباد إلى ربهم وليس بشراً ينزع إلى التسلط والجبروت، ما انتقم لنفسه قط، ولا طلب لها علواً في الأرض»[2].

مثل آخر من عفو النبيّ ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير قتل النبيّ ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: **«أفضالة؟»**، قال: «نعم، فضالة يا رسول الله»، قال: **«ماذا كنت تحدث به نفسك؟»**، قال: «لا شيء، كنت أذكر الله». فضحك النبيّ ﷺ ثم قال: **«استغفر الله»**، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: «والله، ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه»[3].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي، الحميدي: ٢٢٣/٧ ـ ٢٢٥.

(٢) علل وأدوية، محمد الغزالي: ص١١٨.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ٨٠/٥.

«بهذا الخلق العظيم كان صاحب الرسالة الخاتمة يصنع السلف الأول، إنه لم يصنعهم على هذا الغرار ليؤمنوا به وحسب، لا إنه يريد أن يؤمنوا وأن يحملوا إلى غيرهم الإيمان وأن يزيحوا من أمامه العوائق، إنهم بناة تاريخ مديد، ودعائم رسالة تستوعب الزمن كله»[1].

تواضع النبيّ ﷺ وإسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر رضي الله عنه بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه؟**»، قال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه»».

قالت: «فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلم**»، فأسلم». قالت: «ودخل به أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وكأن رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «**غيروا هذا من شعره**»»[2].

إن التواضع خلق إسلامي رفيع لا يقدر عليه إلا المؤمن المخلص لربه، الذي جاهد نفسه جهاداً كبيراً فصارت لينة طيعة لما يرضي الله، ذلك أن النفس الأمّارة بالسوء يسرها التعالي عن الآخرين، وتنتفخ حين تسمع مدحهم وثناءهم عليها، وتشعر بنشوة غامرة إذا انتصرت وانتقمت، . . . إلخ، وهذا كله رياء نهى عنه الإسلام لأنه نوع من الشرك، فلا يقدر على التواضع إلا من يعمل لله تعالى وحده، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وفي هذا الخبر تربية نبوية لكل مسلم وحث على توقير كبار السن

---

(١) علل وأدوية، محمد الغزالي: ص١٢٠.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم (٧٢٠٨): ١٨٨/١٦ و١٨٩، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: «أتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: «**غيروا هذا بشيء**»»، كتاب اللباس والزينة، باب نهي الجل عن التزعفر، رقم (٢١٠٢): ١٦٦٣/٣.

واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «*ليس منا مَن لم يوقر الكبير ويرحم* **الصغير ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر**»[1]، وقوله: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم**»[2].

أجرنا مَن أجرت يا أم هانئ:

عن أبي مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: «ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره فسلمت عليه، فقال: «**مَن هذه؟**»، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «**مرحباً بأم هانئ**».

فلما فرغ من غسله قام فصلَّى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي[3] أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا مَن أجرت يا أم هانئ**»»[4].

لقد جاء علي رضي الله عنه يريد قتل ابن هبيرة، استجابة لتوجيه النبيّ ﷺ حين أهدر دم مجموعة من كبار المجرمين وأوصى صحابته بقتلهم حتى ولو وجدوهم متعلقين بأستار الكعبة، وهذا أحدهم، ففر من القتل إلى أم هانئ واحتمى بها، فأدخلته البيت وأغلقت عليه الباب، ورفعت القضية إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس، رقم (٤٥٨): ٢٠٣/٢، وأحمد في مسنده، رقم (٢٣٢٩): ٢٥٧/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي موسى الأشعري، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٨٤٣): ٢٦١/٤.

(٣) أي: أخي، وتقصد به سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه.

(٤) متفق عليه عن أبي مرة مولى أم هانئ، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به، رقم (٣٥٠): ١٤١/١، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٣٣٦): ٤٩٨/١.

ولعلها لمست من الرجل ندماً على ما فرط منه ورغبة في الإسلام، ولذلك أمّنته كي تعطيه مزيداً من الوقت ليختار موقفه النهائي في هدوء، وقد رجح النبيّ ﷺ رأي هذه المرأة العاقلة الحكيمة، وبالفعل فقد أسلم وحسن إسلامه، وصدق الله حيث يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

إن المرأة الصالحة المصلحة قادرة على أن تجلب لأمتها خيراً كثيراً وتدفع عنها بلاءً كبيراً، والعكس صحيح: فالمرأة الفاسدة المفسدة يمكنها أن تتسبب لأمتها في تضييع أجيال وصرفها عن منهج دينها آلاف الأميال.

مكة منبع حضارة:

وبفتح مكة «طويت منذ اللحظة جاهلية قريش، فلتُطوَ معها سائر عاداتها وتقاليدها، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر. ولتغتسل قريش من بقية أدرانها لتنضم إلى القافلة وتسير مع الركب... وإن مكة ستصبح بعد اليوم مشرق حضارة ومدنية جديدتين تلبس منهما الدنيا كلها حلة من السعادة الإنسانية الشاملة»[1].



(١) فقه السيرة، البوطي: ص٣٨٢.



غزوة حنين

سببها:

لما فتح الله عزَّ وجلَّ مكة على المسلمين، اتصل أشراف هوازن وثقيف (الطائف) ببعضهم وازداد حقدهم على المسلمين وتخوفوا منهم بعدما خضعت لهم مكة، فحشدوا حشوداً كبيرة من هوازن وثقيف وبني هلال، وولّوا عليهم مالك بن عوف سيد هوازن، فأمرهم أن يخرجوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم حتى لا يفروا، وخرجوا لمقاتلة المسلمين في أكثر من أربع وعشرين ألف مقاتل.

بلغ النبيّ ﷺ عزمُ هوازن وثقيف فخرج إليهم في اثني عشر ألف من المسلمين: عشرة آلاف الذين خرجوا معه من المدينة، وألفان من الطلقاء الذين أسلموا في الفتح[1].

لا ريب أن السبب في هذه المعركة هم هؤلاء الذين احتشدوا في جموع غفيرة جداً وجاؤوا معهم بنسائهم وأبنائهم وأموالهم كي يستميتوا في القتال من أجل إبادة المسلمين، والتخلص منهم إلى الأبد.

فماذا يُنتظر من المسلمين غير أن يستعدوا للدفاع عن وجودهم وحقهم في الحياة؟!

---

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣، سيرة ابن هشام: ٥/١٠٤.

الثبات والنصر:

انهزم المسلمون في بداية المعركة بسبب الكمين الذي نصبه لهم العدو، وبسبب الطلقاء الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، إذ لم يكونوا على مستوى المسلمين الأولين في الإخلاص والتضحية والثبات، وبسبب الإعجاب بالكثرة والغرور الذي راود نفوس البعض حتى قالوا: «لن نغلب اليوم عن قلة».

قال العباس: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرَة**[1]» - وكان العباس رجلاً صيتاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: «يا لبيك يا لبيك»، فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: «يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار». قال: «ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: «يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج».

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمي الوطيس**»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**»، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدّهم كليلاً وأمرهم مدبراً»[2].

---

(١) هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، رقم (١٧٧٥): ١٣٩٨/٣.

وعن البراء قال: «... ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول: «**أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»»[1].

انحاز النبيّ ﷺ ذات اليمين ووقف ساكن الجأش يدبر الرأي في خطة ينقذ بها الإسلام ومستقبله، فهتف بأصحاب العقائد ورجال الفداء، فهم وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب.

واجتمع حول رسول الله ﷺ حوالي مائة من الرجال الذين دعاهم، فاستقبل النبيّ ﷺ بهم المشركين وأعاد الكرة عليهم[2]، وهو يدعو: «**اللّهم أنزل نصرك**».

وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

لقد قدم النبيّ ﷺ درساً بالغ الروعة في الثبات في أحلك الظروف، ليتعلم المسلم أن من أسباب النصر: الثبات في الشدائد.

وفي ثباته ﷺ في مواجهة هذا الجيش العرمرم وقد بقي وحده، بل كان يتوغل إلى عمق العدو رافعاً صوته: «**أنا النبيّ لا كذب**»، فيه دليل قاطع على صدق نبوته ﷺ، حيث كان واثقا من أنه مرسل من عند ربه لتبليغ رسالته، ولا بد من إتمامها وما دامت لم تتم فلن يقف في طريقه شيء.

قال ابن كثير: «قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشفَ عنه جيشه، وهو مع هذا

---

(١) المرجع السابق، رقم (١٧٧٦).

(٢) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي: ص٤٢٣.

على بغلة، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكرّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان»[1].

الدعاء لأهل الطائف بدل الدعاء عليهم:

بعد انهزام المشركين في حنين هربوا إلى الطائف وتحصنوا داخل حصونها المنيعة، فتابعهم المسلمون وحاصروهم خمس عشرة ليلة، ثم إن النبيّ ﷺ أمل فيهم خيراً فأمر المسلمين بأن يرحلوا ويدعوهم وشأنهم.

ولما استعدوا للرحيل قال بعض المسلمين للنبيّ ﷺ: «يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم، فقال: «**اللَّهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم**»[2].

وكذلك كان خلقه دوماً ﷺ، فما من مناسبة يُطلب فيها منه ﷺ أن يدعو بالشر على فرد أو جماعة إلا ودعا له بخير بدل الدعاء عليه بالشر.

وجاءت النتيجة إيجابية: لم يطل بقاء ثقيف على شركها، فقد استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ فما هي إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم على المدينة يخبر النبيّ برغبتهم في الإسلام.

وقال محمد سعيد رمضان البوطي معلقاً على دعاء النبيّ ﷺ لثقيف وقد جعله تحت عنوان: الجهاد لا يعني الحقد على الكافرين: «وهذا يعني: أن الجهاد ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما هي مسؤولية الناس كلهم بعضهم تجاه بعض، لمحاولة إعتاق أنفسهم من العذاب الأبدي يوم القيامة.

ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغي أن يتجه إلى غيرهم إلا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤٥/٢.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ٤٥/٨، سيرة ابن هشام: ١٦٢/٥.

بالهداية والإصلاح، لأن هذه الغاية هي الحكمة من مشروعية الجهاد»[1].

يا ليت أبناء المسلمين اليوم يفهمون هذا الكلام القيّم ويستوعبونه ويعملون بجد وإخلاص ومثابرة لتحقيقه، ولا يزجون بالإسلام في مواقف محرجة.

ويا ليت من يخاصمنا ويشنع على الجهاد في الإسلام يعطي فرصة لنفسه، ويتعرف على الإسلام من منابعه الصافية، ويقف عند هذه الحكمة البالغة فيلقي السمع وهو شهيد.

الصحابة طلاب آخرة لا طلاب دنيا:

بعد توزيع النبيّ ﷺ لغنائم معركة حنين، جاءه وفد هوازن الذي كان قد قاتل المسلمين مع ثقيف، جاءه هذا الوفد مسلماً، وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم:

عن عروة أن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم**»، وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله رادٌّ إليهم إحدى الطائفتين، قالوا: «فإنا نختار سبينا».

فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل**»، فقال الناس: «قد طيبنا ذلك يا رسول الله»، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) فقه السيرة، البوطي: ص٣٩٥.

«إنا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[1]، وأعيد إلى هوازن سبيها.

لقد تعلم الصحب الكرام الترفع عن متاع الدنيا وعدم التعلق بها من أخلاق النبيّ ﷺ، فلم يحرص في حياته قط على أمر من أمور الدنيا الفانية، ولم ينافس أحداً عليها، ولم يستأثر بشيء منها دون أصحابه.

كل نصيبه ﷺ من الدنيا يجعله في خدمة الدين وبلوغ الآخرة، قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٣٦].

ففي هذه الغزوة كانت الغنائم كثيرة، فخصّ النبيّ ﷺ المؤلفة قلوبهم ـ وهم أهل مكة ـ بمزيد من الغنائم يتألف قلوبهم على الإسلام، وتبعه ﷺ بعض الأعراب ورؤساء القبائل وازدحموا عليه يسألونه مزيداً من العطاء، كما جاء في «موطأ مالك» وغيره: أن رسول الله ﷺ حين صدر من حنين وهو يريد الجعرانة، سأله الناس حتى دنت به ناقته من شجرة فتشبكت بردائه حتى نزعته عن ظهره، فقال رسول الله ﷺ: **«ردوا علي ردائي، أتخافون أن لا أقسم بينكم ما أفاء الله عليكم؟ والذي نفسي بيده، لو أفاء الله عليكم مثل شجر تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»**، . . . ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وَبَرَة، ثم قال: **«والذي نفسي بيده، ما لي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز، رقم (٢١٨٤): ٨١٠/٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول، رقم (٩٧٧): ٤٥٧/٢، والنسائي في المجتبى، رقم (٤١٣٨): ١٣١/٧، وأبو داود في سننه، رقم (٢٦٩٤): ٦٣/٣، وابن حبان في صحيحه، رقم (٤٨٥٥): ١٩٣/١١.

لقد ملّك الله تعالى نبيّه ﷺ خمس الغنائم بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ومع ذلك كان ﷺ يوزعه على الفقراء والمحتاجين، إنه عطاء من لا يخشى الفقر، وهو ما شهد به الناس أنفسهم الذين جاؤوا يتدافعون لأخذ الغنائم، يحفز بعضهم بعضاً قائلاً: «إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر».

وفي هذه الغزوة أيضاً عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع النبيّ ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبيّ ﷺ قد أثّرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: «مُرْ لي من مال الله الذي عندك»، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء[(١)].

وحصل في هذه الغزوة نفسها ما رواه عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «لما كان يوم حنين آثر النبيّ ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجل: «والله، إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله». فقلت: والله لأخبرن النبيّ ﷺ، فأتيته فأخبرته، فقال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»»[(٢)].

«لقد ظهر من رسول ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبيّن لهم خلقه ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربياً ومصلحاً»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسِيَر، باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، رقم (٢٩٨٠): ٣/١١٤٨.

(٢) المرجع نفسه، رقم (٢٩٨١): ٣/١١٤٨.

(٣) المجتمع المدني في عهد النبوة: ص٢١٩.

ولقد أحسن ابن عباس ﷺ في وصفه الصادق لجود النبيّ ﷺ وكرمه حين قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

تحريم قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء والعبيد في الجهاد:

وقد دل على هذا الحكم الأحاديث التي رويت عن النبيّ ﷺ:

عن حنظلة الكاتب قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فمرّ بامرأة مقتولة والناس مجتمعون عليها فقال: **«ما كانت هذه لتقاتل»**، وقال لأحدهم: **«أدرك خالداً فقل له: لا تقتل ذرية ولا عسيفاً[2]»**»[3].

وبوّب الإمام مسلم في «صحيحه» باباً هكذا: باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ذكر فيه هذا الحديث: «عن عبدالله بن عمر أن امرأة وُجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[4].

وهذا الحكم متفق عليه لدى الفقهاء جميعاً، ويستثنى منه ما إذا حملوا السلاح وقاتلوا، فإنهم يُقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين[5].



---

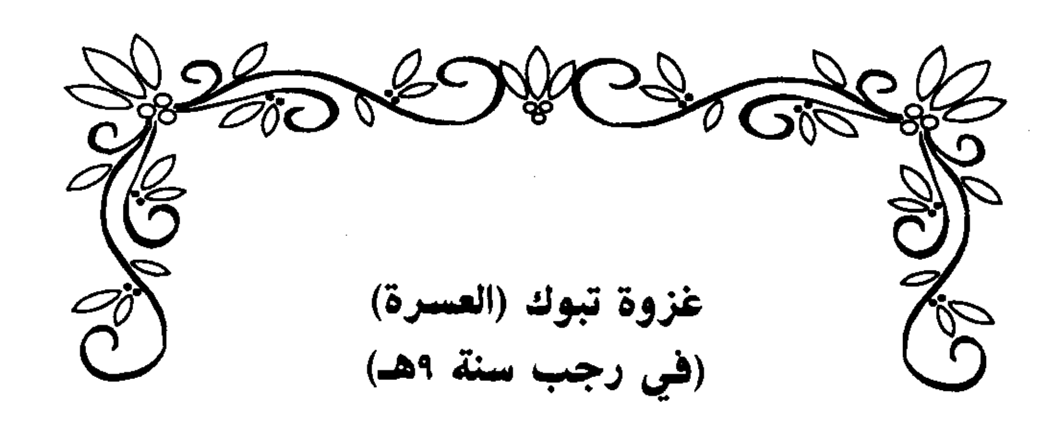
(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (٦): ١/٦.

(٢) العسيف: الأجير والعبد.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن حنظلة الكاتب، رقم (٤٧٩١): ١١/١١٢، والنسائي في السنن الكبرى، رقم (٨٦٢٧): ٥/١٨٧.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، باب قتل النساء في الحرب، رقم (٢٨٥٢): ٣/١٠٩٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، رقم (١٧٤٤): ٣/١٣٦٤.

(٥) انظر: فقه السيرة، البوطي: ص٣٩٤.



غزوة تبوك (العسرة)
(في رجب سنة ٩هـ)

سببها:

بلغ المسلمين عن طريق الأنباط الذين يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة أن الروم قد جهزوا جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل، وجاؤوا معهم بالعرب المتنصرين وغيرهم من القبائل التي كانت تحت إمرة الرومان، وقد بلغت مقدمتهم إلى البلقاء.

وهكذا فقد تمثل أمام المسلمين خطر كبير حتى كان الخوف يساورهم كل حين، فلا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان ومعهم الغساسنة، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ، حين آل النبيّ ﷺ من نسائه شهراً فهجرهن، قال عمر: «. . . وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته[1] فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: «أنائم هو؟»، ففزعت فخرجت إليه، وقال: «حدث أمر عظيم!»، قلت: ما هو أجاءت غسان؟ قال: «لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه. . .»»[2].

(١) كان عمر بن الخطاب يتناوب مع أحد الأنصار، حين يكون أحدهما بالمدينة يكون الآخر في حقوله، يفعلان ذلك يوماً بيوم، والذي يكون بالمدينة ينقل للآخر ما سمعه من النبيّ ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها، رقم (٢٣٣٦): ٢/٨٧٢.

قال الشيخ محمد الغزالي موضحاً الدافع للمسلمين في خروجهم من المدينة للجهاد في سبيل الله: «عزم النبيّ أن يرسي العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة، وهو لا يقبل مساومة في ترك دعاته أحراراً يعرضون دينهم على الناس، فإن راقهم دخلوه وإن ساءهم تركوه.

يجب أن تتاح الفرصَ المعقولة لإفهام الجماهير ما تُدعى إليه، أما أن تُقطع أعناق الدعاة وتُقام الأسوار الكثيفة في وجوههم، فهذا ما يقاومه الإسلام بالقوة»[(١)].

شبهة والرد عليها:

أثار البعض شبهة مفادها أن خروج المسلمين في هذه الغزوة من أعماق الجزيرة العربية إلى شمالها، يعتبر اعتداءً من طرف المسلمين على الروم، وتساءل ما الذي جاء بالعرب من جزيرتهم إلى الشام وغيرها؟

ونحن نجيب هؤلاء بتصحيح السؤال الذي طرحوه، فنقول: ما الذي جاء بالرومان إلى الشام؟

ويحسن بنا أن نتابع مع الشيخ محمد الغزالي رده على هذه الشبهة حيث يقول: «ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات القهر المادي والأدبي.

فالذي يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك: لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم هذه الأقطار المغلوبة على أمرها؟

والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبيّ شيئاً لا غبار عليه: دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها، وتجذب الشعوب إليها أو تصرفهم عنها، لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح.

---

(١) فقه السيرة: ص٤٣٥.

فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها، ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد...

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء... وترامت إلى النبيّ في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر... فلم يرَ النبيّ بدّاً من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيت»[1].

يُعطون ولا يأخذون:

رأينا من قبل أن غنائم حنين الكثيرة وزعها النبيّ ﷺ على المؤلفة قلوبهم والطلقاء ورؤساء القبائل، تحبيباً لهم في الإسلام وتثبيتاً لهم عليه، وأن الرجال الصادقين فرسان المواقف وأصحاب اليقين من الأنصار والمهاجرين، هم الذين انتصر بهم الدين في حنين وغيرها، فهؤلاء يكثرون عند الفزع ويتغيبون عند الطمع.

إنهم رُبوا على البذل والتضحية كما رُبوا على الصدق واليقين، وها قد حان وقت العطاء وإنفاق النفس والمال، ليميز الله الخبيث من الطيب، فتبرز المعادن الأنقى والرجال الأتقى، ويختفي الحمأ المسنون أشباه الرجال أصحاب الدرك الأسفل من النار.

واكتنفت ظروف صعبة إعداد الجيش لهذه الغزوة ولذلك سمي بـ: جيش العسرة، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة والسفر شاقاً لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه.

أمام هذا الوضع العسير حث النبيّ ﷺ أصحابه على الإنفاق في هذه الغزوة، فأنفق كل حسب مقدرته، ولنقف عند هذه النماذج الرائعة:

---

(١) فقه السيرة: ص٤٣٥ ـ ٤٣٦.

١ ـ **عثمان صاحب المرتبة الأولى**: فعن عبدالرحمٰن بن حباب قال: «شهدت النبيّ ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: «يا رسول الله، عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله». ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: «يا رسول الله، عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله». ثم حضّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: «يا رسول الله، عليّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله». فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: **«ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»**»[1].

وعن كثير مولى عبدالرحمٰن بن سمرة قال: «جاء عثمان إلى النبيّ ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت النبيّ ﷺ يقلبها بيده ويقول: **«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»**، يرددها مراراً»[2].

٢ ـ **منافسة كريمة بين عمر وأبي بكر**: يروي الفاروق تفاصيل ذلك فيقول: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أبقيت لأهلك؟»**، قلت: مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: **«يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟»**، قال: «أبقيت لهم الله ورسوله». قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبداً»[3].

٣ ـ **عبدالرحمٰن بن عوف**: روي أنه أنفق ألفي درهم، وهي نصف ماله لتجهيز جيش العسرة، وكانت لبعض الصحابة الآخرين نفقات عظيمة،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، باب في مناقب عثمان ﷺ، رقم (٣٧٠٠): ٦٢٥/٥.
(٢) المرجع نفسه، رقم (٣٧٠١): ٦٢٦/٥، والحاكم في المستدرك، رقم (٤٥٥٣): ١١٠/٣، وأحمد في مسنده: ٦٣/٥.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، باب في مناقب أبي بكر وعمر، رقم (٣٦٧٥): ٦١٤/٥، وأبو داود في سننه، رقم (١٦٧٨): ١٢٩/٢.

كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيدالله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي ﷺ[(١)].

٤ ـ **البكّاؤون**: حزن الفقراء من المهاجرين والأنصار لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فجاؤوا يطلبون من رسول الله ﷺ ظهوراً يركبونها، فقال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

وحزن أيضاً الضعفاء وأصحاب الأعذار ممن أقعدهم المرض، حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

وهؤلاء الضعفاء والمرضى وكبار السن الذين حبسهم العذر، كانوا يصاحبون المقاتلين بأحاسيسهم أينما كانوا، وهم الذين عناهم النبيّ ﷺ فيما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**»، قالوا: «يا رسول الله، وهم بالمدينة؟»، قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[(٢)].

ومن الفقراء الذين أعجزتهم الوسائل التي تبلغهم ميدان الجهاد وسالت أعينهم بالدمع لهذا الحرمان:

حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فقام علية بن يزيد فقال: «**يا رسول الله، حثثت على الصدقة وما عندي إلا عرضي فقد تصدقت به**

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ص٦١٦، مغازي الواقدي: ٣٩١/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب نزول النبيّ ﷺ الحجر، رقم (٤١٦١): ١٦١٠/٤.

على مَن ظلمني»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فلما كان في اليوم الثاني قال: «**أين المتصدق بعرضه؟ فإن الله تبارك وتعالى قد قبل ذلك منه**»[1].

إن تاريخ أغنياء المسلمين تاريخ مشرف، فقد سخروا أموالهم في خدمة الدين عن طواعية ورغبة، وكما رُبوا على أن يقدموا أنفسهم وذلك هو الجهاد بالنفس، فقد رُبوا كَذلك على تقديم أموالهم وذلك هو الجهاد بالمال.

وهكذا يدلك إنفاق هؤلاء المنفقين على أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولا نهمين في جمع الأموال، ولا جماعات تنهب ثروات الشعوب وتحملها في البر والبحر والجو لبلادها، فتدمر بلدان غيرها لتعمر بلادها.

بل كان الجيل الذي رباه محمد بن عبدالله ﷺ جيلاً كريماً معطاءً، لا يطمع فيما في أيدي الناس، ولا يتحرك خطوة من أجل دنيا الآخرين، لا يفكر إلا في مرضاة الله ونصرة دينه الحق والاستجابة لله ورسوله لما يحييه سعيداً في الدنيا والآخرة.

ذلك الجيل الأطهر الأكرم قد باع واشترى مع الله تعالى: باع نفسه وماله لله واشترى بذلك الجنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

أيقنوا من هذا الفوز العظيم، ولذلك حرصوا حرصاً شديداً في جعل حياتهم بكل ما فيها من أعمال كبيرة أو صغيرة، بل من حركة أو سكنة، بل حتى خلجات أنفسهم، جعلوا كل ذلك خالصاً لله وابتغوا به رضا الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله في كتابه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده، رقم (٣٣٨٧): ٣١٦/٨، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب فيمن تصدق بعرضه: ١١٤/٣.

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ربما من حق الأمم الأخرى أن تحسدنا على هذه الكنوز النادرة التي لم تتشرف بمثلها أبداً، ولم يكن لها ند في التاريخ البشري مطلقاً، إنهم تلاميذ محمد ﷺ.

موقف النبيّ ﷺ من المنافقين:

بخل المنافقون عن الإنفاق لتجهيز هذه الغزوة كعادتهم، ومع ذلك لم يوجه النبيّ ﷺ الخطاب إلى أشخاصهم، بل بقي يحث الناس بصفة عامة، وعندما حان الرحيل تخلف هؤلاء واعتذروا بأعذار واهية:

حاول البعض منهم أن يثبط المسلمين قائلين لهم: «لا تنفروا في الحر»، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

وقال رسول الله ﷺ لأحدهم وهو الجد بن قيس والمسلمون يتجهزون للقاء الروم: «**هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟**»، فقال: «يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن».

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «**قد أذنت لك**»، ففي الجد ابن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩][(١)].

وذهب بعضهم إلى النبيّ ﷺ مبدين أعذاراً واهيةً ليأذن بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٨٢/٢ ـ ١٨٣، سيرة ابن هشام: ١٩٦/٥.

وهؤلاء المنافقون لا خير فيهم يُرتجى للمجتمع الإسلامي، وهيهات أن يُعدوا للجهاد عدة أو يتمنوا للمجاهدين نصراً، ولذلك قبل النبيّ ﷺ أعذارهم الكاذبة وأعرض عنهم، فقد أراحه الله منهم.

إيثار الآخرة على مُتع الدنيا:

أصحاب محمد ﷺ رجال واقعيون، تشتهي أنفسهم ما يشتهيه الآخرون من زخارف الدنيا، ولكنهم لا ينساقون وراء رغباتهم ونزواتهم، بل يقومون ويغَلِّبون رضا الله ولو بسخط نفوسهم، وهذا أبو خيثمة فترت نفسه أول الأمر فلما انطلق الجيش وراجع نفسه قارن بين ألوان النعيم الذي بين يديه وبين الشدائد التي يعانيها النبيّ ﷺ، فاستيقظ ضميره، قال الطبري: «إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريشين فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، قال: «رسول الله في الضِّح[1] والريح وأبو خيثمة في ظلال باردة وماء بارد وطعام وامرأة حسناء في ماله مقيم! ما هذا بالنَّصف».

ثم قال: «والله، لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيئا لي زاداً»، ففعلتا، ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: «إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ»، ففعل، ثم سار حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: «يا رسول الله، هذا راكب على الطريق مقبل»، فقال رسول الله: «**كن أبا خيثمة**»، فقالوا: «يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة».

---

(١) أي: في الشمس.
(٢) أي: جمله.

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«أولى لك يا أبا خيثمة»**، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير»[1].

فالمسلم ليس نبياً معصوماً ولا ملكاً منزوع الرغبات، وإنما هو صاحب ضمير حي، إذا ما مرت به لحظات من الضعف البشري سرعان ما يعود بعدها أقوى إيماناً وأمضى عزيمة.

بلوغ تبوك ومصالحة قبائل الشمال:

بلغ المسلمون تبوك بعد جهود كبيرة ومتاعب مضنية، فلم يجدوا عدواً هناك، ويبدو أن الروم تراجعوا تجنباً لقوة المسلمين الفتية.

وصالح النبيّ ﷺ القبائل العربية المتنصرة في الشمال، فدخل في عهده أهل (أيلة) و(أذرح) و(تيماء) و(دومة الجندل).

ما الحكمة في أن هذا الجيش لم يواجه الروم؟

أجاب الدكتور البوطي على ذلك قائلاً: «وقد بذل جيش العسرة في هذه الغزوة العسيرة المضنية المال والجهد، وضحوا بالراحة في أجمل فرصها، واستبدلوا به العذاب في أقسى صوره وأشكاله، ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم له، فحُق لهم النصر والتأييد، وأن يكفيهم الله القتال برعب من لدنه يقذفه في قلوب أعدائهم، فيتفرقون عنهم»[2].

وقد صالح المسلمون هذه القبائل المتاخمة للروم، ومع أن جيش المسلمين كان عدده كبيراً جداً وأقوى بكثير من أية قبيلة من هذه القبائل على حدة، فلو كان جيشاً آخر في وضعية جيش المسلمين من الكثرة والقوة، لساوره التفكير في القضاء المبرم على تلك القبائل التي تبدو أمامه

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ١٨٣/٢.

(٢) فقه السيرة: ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

ضئيلة ونهب أموالها وخيراتها، وإنها لفرصة ثمينة في نظر المتلهفين للشهوات والزعامات.

غير أن الجيش الإسلامي لا يفكر هكذا أبداً، إن كلاً من أهدافه ووسائله ربانية سماوية وليست وحشية أرضية.

إنهم يحملون السلامَ والإسلام للناس عن طريق تحبيب رب العباد لعباده، وتأمل كيف كان النبيّ ﷺ يستغل كل مناسبة لينزع حب الدنيا من قلوب أصحابه ويشدهم إلى الآخرة:

مناديل سعد بن معاذ أحسن:

صالح المسلمون في خلال هذه الغزوة أهل دومة الجندل، فأرسل أميرهم (الأكيدر) حلة من حرير ناعم هدية للنبيّ ﷺ، فجعل بعض الصحابة يلمسونها ويعجبون من لينها وجمالها، وكان النبيّ ﷺ قد نهى عن لبس الحرير، فقال لهم الرسول ﷺ: «**أتعجبون من لين هذه؟**»، قالوا: «نعم يا رسول الله»، قال: «**والذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن منها وألين**»[١].

نعم، ذلك هو المنهج النبوي الفريد في تربية الجيل الفريد في تاريخ البشرية: الجيل الأرقى والأنقى والأتقى!

تكريم الرسول القائد لجنوده:

قال عبدالله بن مسعود: «قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبدالله ذو البجادين[٢] المزني قد

---

(١) انظر: صحيح البخاري عن أنس بن مالك، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشرك، رقم (٢٤٧٣): ٩٢٢/٢، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل سعد بن معاذ ﷺ، رقم (٢٤٦٨): ١٩١٦/٤.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إليَّ أخاكما**»، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «**اللَّهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه**»». قال عبدالله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة»[1].

فهذا الفعل من النبيّ ﷺ يدل على تكريم القائد لجنوده بعد موتهم، لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعو إلى تطبيقه إلا في العصر الحديث.

وبهذا يمكن أن يقال: «إن رعاية القائد لشؤون جنده تعد سبقاً عسكرياً إسلامياً، لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة من بزوغ الإسلام»[2].

وهذه صورة فريدة في البر والتكريم، لم توجد في تاريخ الملوك والحكام من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه[3].

تأمل قول ابن مسعود بعدما رأى بأم عينيه النبيّ ﷺ يتناول ذا البجادين بيديه الشريفتين الطاهرتين ويضعه في لحده، وبعدما سمع بأذنيه شهادة النبيّ ﷺ له: «**اللَّهم إني أمسيت راضياً عنه**»، وسمع دعاءه له: «**فارض عنه**».

تأمل ماذا تمنى ابن مسعود بعدما رأى وسمع؟ هل تمنى شيئاً من أمور الدنيا؟ لقد تمنى أن تناله بركة النبيّ ﷺ لو مسكه بيديه الكريمتين فغشيته رحمة الله تعالى في قبره، وتمنى لو نال ذلك الوسام المتمثل في شهادة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢٠٩/٥. وانظر: مسند أحمد: ١٥٩/٤، المعجم الكبير، الطبراني: ٢٩٥/١٧.

(٢) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية: ص٢٩٩.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة: ص٤٧٢.

النبيّ ﷺ له بالرضا عليه، وتمنى لو كان هو الذي دعا له النبيّ ﷺ بأن يرضى الله عليه.

تلك هي أمنيته: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة». ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

مسجد الضرار:

روى ابن هشام عن ابن إسحاق قال: «أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: «يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه»، فقال: «**إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه**»، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ رجلين من أصحابه فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه**»، فخرجا سريعين حتى أتياه فحرقاه وهدماه، وتفرق من كان فيه»[1].

سلك النبيّ ﷺ مع المنافقين طريق الملاينة والإحسان، ولو أنهم كانوا على قليل من الخير لأسرهم هذا الحلم، وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين، بيد أن هذا الأسلوب في معاملتهم لم يزدهم إلا جرأة، ولم يبقَ بد من كشف خبثهم، وقد نزل القرآن أخيراً يبيّن للناس نواياهم وما انطوت عليه نفوسهم، فقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

من أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢١١/٥، تاريخ الطبري: ١٨٦/٢، عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢٨٤/٢ ـ ٢٨٥.

ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع للعبادة، وهنا حصلت نقلة خطيرة لدى المنافقين: فقد انتقلوا من الرأي الشخصي الذي يتعلق بصاحبه إلى السعي لتكوين رأي عام يدعون إليه داخل المجتمع الإسلامي.

فلو أنهم اكتفوا بأن يكفروا في حدود قناعاتهم، فلن يعاقبهم أحد، ولن يجبرهم أحد على تغيير اختيارهم، فالقاعدة في الدين معروفة وهي: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والدليل على ذلك أن النبيّ ﷺ لم يتخذ ضدهم أي إجراء عملي قبل مسجد الضرار، رغم معرفته بهم، لأنهم كانوا في حدود الرأي الحر والمواقف الشخصية، بل كان النبيّ ﷺ يصبر عليهم ويحسن إليهم، وليس أدل على ذلك من قولته ﷺ الشهيرة في رأس المنافقين حين استأذنه ابنه عبدالله رضي الله عنه في قتل أبيه: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**».

أما وقد تحول موقفهم من الرأي الحر إلى العمل على تدمير المجتمع وتخريبه، بنشر الأفكار الهدامة، والقيام بالمؤامرات السرية للإطاحة بالنظام الإسلامي، والاتصال بالأجانب لتبليغهم أسرار الدولة وتعريفهم على الثغرات ونقاط الضعف، وتشجيعهم على الهجوم على المسلمين.

إذاً تحول الفكر إلى عمل، وأصبح العمل هو الخيانة العظمى، فلا بد من الضرب وبقوة على أيدي الخونة.

ممارسة الشورى في هذه الغزوة:

استشار رسول الله ﷺ في هذه الغزوة أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأخذ برأيهما رضي الله عنهما:

١ ـ قبول مشورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عن عبدالله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب: «حدثنا من شأن ساعة العسرة»، فقال عمر: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على

كبده، فقال أبو بكر الصديق: «يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا»، فقال: «**أتحب ذلك؟**»، قال: «نعم»، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى حالت السماء فأظلّت ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر»[1].

٢ ـ مشورة عمر بن الخطاب ﷺ: عن أبي هريرة قال: «كنا مع النبيّ ﷺ في مسير فنفدت أزواد القوم، حتى هموا بنحر بعض حمائلهم، فقال عمر: «يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها»، ففعل، فجاء ذو البر ببره وذو التمر بتمره... فدعا عليها، حتى ملأ القوم أزودتهم...»[2].

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كافة شؤونها منهج تربوي كريم، ومبدأ أساسي في المجتمع الإسلامي، وليس أمراً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه، ولذلك وجدنا النبيّ ﷺ وهو المعصوم الذي يوحى إليه ومع ذلك ما من مناسبة تمر بالمسلمين إلا ويكون لهذا المبدأ حصة ذات بال من اهتمامه ﷺ، وما ذاك إلا لقيمة هذا المبدأ وأهميته في حياة الأمة.

وأما من ينكر حصول الشورى في حياة النبيّ ﷺ، على أساس أن ذلك يتنافى مع العصمة والوحي، فذلك تخوف في غير محله، ووقائع السيرة النبوية تعارضه.

أما الذين يريدون إنكار الشورى في عهد النبيّ ﷺ فهم يخشون أن يعترفوا بمكانة وفضل الصحابة الذين أبدوا رأيهم ووافقهم عليه النبيّ ﷺ، وهؤلاء ـ للأسف الشديد ـ قرأوا التاريخ بعين واحدة حولاء، ويكفي أن نسألهم سؤالاً واحداً فقط: لقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم نبيه ﷺ أن يستشير أصحابه فقال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فهل أطاع النبيّ ﷺ أمر ربه وشاورهم أم عصاه؟

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، باب ذكر الدليل على أن الماء إذا خالطه فرث ما يؤكل لحمه لم ينجس، رقم ١/٥٣، وابن حبان في صحيحه، رقم (١٣٨٣): ٤/٢٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (٢٦): ١/٥٥.



حج أبي بكر الصديق ﷺ

في السنة نفسها (٩هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج، ثم نزلت أوائل سورة براءة بعد انصراف وفد الحجيج، فأرسل النبيّ ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ ليقرأها على الناس في موسم الحج، ووزع أبو بكر مجموعة من الصحابة يعينون علياً في مهمته، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، علي بن أبي طالب يؤذن ببراءة يوم النحر في أهل منى وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[1].

وعن زيد بن يثيع قال: «سألنا علياً: بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال: «بعثت بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبيّ ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا»[2].

شبهة والرد عليها:

هناك مغرضون يعتبرون بأن الإسلام قد حدّ من حرية الرأي عندما وضع حداً نهائياً للوثنية في جزيرة العرب.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله فسيحوا في الأرض، رقم (٤٣٧٨): ١٧٠٩/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، رقم (١٣٤٧): ٩٨٢/٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، رقم (٣٠٩٢): ٢٧٦/٥، وأحمد في مسنده، رقم (٥٩٤): ٧٩/١.

أجاب الشيخ محمد الغزالي بفكر حكيم وبيان بليغ على هذا الزعم الباطل فقال: «وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية، عمل إنساني نبيل، وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها السمو والكرامة.

وبحسب الإسلام أنه ظَل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلما أتيحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب، وبالقصاص والقتال كلما وقف في طريقه الجهل والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه.

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء، ولم يفعل ذلك إعزازاً لها، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره.

فقلّ من يسفهون أنفسهم، ويتركون الله العظيم، إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام.

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء، وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل، لم يبقَ لتركهم من حكمة.

إن الكلب العقور لا يترك طليقاً، فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه، فمن السفه اعتبار ما حدث جريمة قتل.

والذين يظنون أو يحلو لهم الظن بأن الإسلام عندما طرد الوثنية، خنق حرية الرأي، هم أشخاص واهمون أو مغرضون.

وعلى هدي التجارب والمصائب التي عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر، ولم يزل الوحي يعالن المشركين بالقطيعة، ويرفض منهم كل اعتذار؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم، ولم ينفكوا عنها يوماً، ولا ينفكوا منها أبداً.

ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهلة المضروبة لهم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ . . . [التوبة: ١ ـ ٣]»[1].

□ □ □ □ □ □

---

(١) فقه السيرة: ص٤٥٣ ـ ٤٥٥.



عام الوفود (٩هـ)

نقل ابن هشام عن ابن إسحاق قوله: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله أفواجاً»[1]، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

معاملة النبيّ ﷺ للوفود:

أولئك الذين طالما حاربوا الإسلام والمسلمين، وتربصوا به الدوائر، وكادوا له المكائد، هؤلاء هم الذين استعدت المدينة لاستقبالهم وتهيئة المناخ التربوي لهم، بتهيئة مكان إقامة ينزل فيه الوافدون، وكان هناك أيضاً مسجد رسول الله ﷺ، والتطوع من طرف الصحابة أو التكليف من النبيّ ﷺ لبعض أصحابه باستضافة بعض القادمين.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢٤٨/٥ ـ ٢٤٩.

واهتم النبيّ ﷺ بتلك الوفود وحرص على تعليمها وتربيتها، وكان ﷺ حريصاً على تفقيههم في الدين، وبيان ما سألوه عنه، فإذا عزموا الرحيل لأوطانهم أوصاهم بلزوم الحق، وحثّهم على الاعتصام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان مسوياً بينهم في ذلك.

فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هداة مهديين، مشرقة قلوبهم وعقولهم بنور العلم والإيمان، يعلمون أقوامهم ما تعلموا، ويذكرون لهم مكارم النبيّ ﷺ وبره وبشره واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه(١).

ولعل أهم عبرة تستخلص من قصة هذه الوفود كلها، تتمثل في أخلاقه السامية ﷺ التي قابل بها هذه الجموع: من عفو وحلم، إلى الترحيب والسرور، إلى التعليم والتربية، وقد وقف الدكتور البوطي يقارن بين موقفين: موقف هذه الوفود طوال هذه السنين، وموقف النبيّ ﷺ عند مجيء هذه الوفود، فقال:

«أتذكر خبر أولئك الذين استقبلوا رسول الله ﷺ يوم أن هاجر إلى الطائف شر استقبال، وأخرجوه من ديارهم شر إخراج، وألحقوا به سفهاءهم وصبيانهم يضربونه ويؤذونه ويسخرون منه؟ تلك هي ثقيف التي سعت اليوم إليه...

وهل تذكر إذ قال زيد بن حارثة لرسول الله ﷺ، وقد عاد أدراجه من الطائف إلى مكة: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟»...

تأمل في كل ذلك الإيذاء الذي رآه من ثقيف والخيبة التي فوجئ بها بعد أن هاجر ساعياً على قدميه يعبر إليهم جبالاً وأودية مؤملاً عندهم استقبالاً كريماً أو استجابة حسنة.

إن أدنى ما يترك ذلك في نفس الإنسان ـ أياً كان ـ من الناس من الشر، أن يفكر في الانتقام أو أن يقابل إساءة بمثلها.

---

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي: ٢/٦٣٢ ـ ٦٣٣.

ولكن أين تجد هذا ـ أو حتى شيئاً من هذا ـ في نفس رسول الله ﷺ تجاه ثقيف؟ لقد حاصر الطائف أياماً ثم أمر أصحابه بالرجوع، فقيل له: «ادع على ثقيف». فأبى ذلك ورفع يديه يقول: **اللّهم اهد ثقيفاً وأت بهم مؤمنين**».

ولما استجاب الله دعاء رسوله فجاء وفد ثقيف إلى المدينة، تسابق أبو بكر الصديق والمغيرة بن شعبة إلى رسول الله ﷺ يبشرانه بذلك، لما يعلم كل منهما من شدة سرور النبيّ ﷺ بنبأ إسلام ثقيف وهدايتهم، فخرج يستقبلهم في بشر وإكرام، وراح يحبس عليهم وقته كله يعلمهم ويرشدهم وينصح لهم.

طالما أرادوا به الكيد وشفوا بإيذائه غليل أحقادهم عليه، وهو لا يريد بهم إلا الخير والسعادة والرشد في الدنيا والآخرة، طالما فرحوا بمنظر النكبة والضر يُرى متلبساً بهما، ولكنه لم يفرح لهم إلا بنعمة الخير والإسلام إذ أكرمهم بهما الله.

تُرى أهذا كله طبيعة بشرية في إنسان، يدعو على مبدأ يراه أو عقيدة قد تخيّرها؟

أما إنها ليست إلا طبيعة النبوة، وليست إلا من تطلعه عليه الصلاة والسلام على هدف واحد فقط، هو أن تؤتى هذه الدعوة ثمارها فيلقى ربه وهو عنه راض، وما أهون الآلام والنكبات كلها في هذا السبيل، وما أعظم الفرحة إذ يجتاز العبد تلك المفاوز كلها ويستقر عند هذا الهدف الجليل!

وذلك هو الإسلام، لا يعرف حقداً ولا ضغينةً ولا يريد شراً بإنسان.

يأمر بالجهاد ولكن في غير ضغينة وحقد، يعلّم القوة ولكن في غير أنانية وكبر، يدعو إلى الرحمة ولكن في غير مهانة أو ضعف، ويعلم الحب ولكن في سبيل الله وحده»[1].



(١) فقه السيرة: ص٤٢٥ ـ ٤٢٧.



حجة الوداع (١٠هـ)

حج رسول الله ﷺ في هذه السنة حجة الوداع، وحج معه مائة ألف مسلم أو يزيدون، فعلّمهم مناسكهم، وألقى عليهم في يوم عرفة خطبة جامعة ركز فيها ﷺ على أهم ما جاء به الإسلام، وكأنها وصية مودع[١]، وخلاصتها: تحريم الاعتداء على الدماء والأموال، والتأكيد على أن كل مسلم هو أخ للمسلم، وإبطال عادات الجاهلية: من ثأر وعصبية وربا... إلخ، وأوصى بالنساء خيراً، وأوصى بالتمسك بالكتاب والسنَّة، وطاعة الحاكم الملتزم بهما، ثم استمع للأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كاملة غير منقوصة، وأخيراً شهد هو على شهادتهم بذلك ﷺ.

والمتأمل في هذه الخطبة يرى أن النبيّ ﷺ أوصى الأمة بكل خير ونهاها عن كل شر، ثم ها هو ﷺ بعد ثلاث وعشرين سنة من جهاد الدعوة قد دانت له جزيرة العرب كلها، فلم يذكر شيئاً واحداً من معاناته الطويلة القاسية في سبيل هدايتهم، ولم يفتخر بأي عمل قام به، ولم يمنّ على أحد بخير أسداه إليه، ولم ينتقم ممن أساء إليه.

إنه ﷺ كله رحمة وحلم وأخلاق سامية، منه تُستلهم الإنسانيةُ الأخلاق وكل الخصال الحميدة من طرفَ أولي الألباب في كل زمان ومكان.

---

(١) انظر: هذه الخطبة كاملة في كتب الصحاح.

آخر البعوث في حياة النبيّ ﷺ:

جهز النبيّ ﷺ جيشاً كبيراً في صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه إلى أرض فلسطين، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ جعلت الجيش يتريث حتى يعرف ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكونَ هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

سببه:

كبرياء دولة الروم جعلتها تأبى على الإسلام حق الحياة، وحملها ذلك على أن تقتل كل من يسلم وتنكل به ليكون عبرة لكل من يفكر في أن يسلم، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان أحد ولاة الروم، فقد ألقوا القبض عليه حين أسلم وسجنوه ثم خيروه بين الرجوع عن الإسلام والموت، فاختار الثبات على الإسلام، فقتلوه وتركوه معلقاً ليرهبوا من تسول له نفسه في سلوك سبيله[١].

فأراد النبيّ ﷺ من خلال هذا الجيش أن يعيد الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب.

ويتجلى من خلال معرفة سبب هذه الغزوة أن من حق المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ودينهم وأن يحموا بعضهم وأن يرفعوا الظلم عن المظلوم.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته عن القتال موضحاً أن النبيّ ﷺ ما بدأ أحداً بقتال:

«كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله، وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بذلك، بل هو متواتر في سيرته،

---

(١) انظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٢/٣٥٥.

فلم يبدأ أحداً من الكفار بقتال... ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب، ولكنه لم يفعل...».

ثم قال: «أما النصارى فلم يقاتل أحداً منهم حتى السنة السابعة من الهجرة، فلما أرسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملوك إلى الإسلام، وكتب إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي، وملوك العرب بالشرق والشام، دخل في الإسلام من النصارى من دخل، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ(معان)...».

إلى أن قال: «فالنصارى هم الذين حاربوا الإسلام أولاً، وقتلوا من أسلم منهم بغياً وظلماً، ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون إلى الإسلام دعوة مجردة، فمن دخل فيه دخل طوعاً لا كرهاً»[1].



(١) عن مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي: ص٨٤.



إلى الرفيق الأعلى

مرض النبيّ ﷺ مرضه الأخير أربعة عشر يوماً، صلَّى فيها بالناس أحد عشر يوماً، وصلَّى بالناس أبو بكر الصديق ثلاثة أيام، وانتقل إلى الرفيق الأعلى ﷺ في وقت الضحى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وأربعة أيام.

وآخر ما فعله النبيّ ﷺ قبل بداية المرض خرج إلى أحد فصلى على الشهداء ودعا لهم، وخرج في منتصف إحدى الليالي إلى مقبرة البقيع فاستغفر لهم.

والمتأمل بدقة في أيامه الأخيرة ﷺ سواء قبل مرضه أو أثناءه ـ رغم علمه بقرب أجله ـ أنه كانت وصاياه تدور حول وحدة المسلمين وأخوتهم ودينهم خصوصاً الصلاة، وكان يحذر من الشرك ومن طاعة الشيطان، وآخر ما أوصى به: الصلاة والمستضعفين.

فلم يترك ملفات سرية سوداء عند أقاربه أو أصدقائه، ولم يوحَ لخواصه بأن ينتقموا من أحد أو يسجنوه أو ينفوه، ولم يوصِ بالخلافة من بعده لأحد بل ترك ذلك شورة بين المسلمين، وكله ثقة في أن الرجال الشرفاء المخلصين والأبطال العظماء المتقين، الذين رباهم وتركهم قادرون على تجاوز المحن الكبيرة والخروج بالأمة من كل الأزمات.

والنتيجة العامة التي نستخلصها من الواقع التاريخي للغزوات التي خاضها النبيّ ﷺ وأصحابه يثبت ويؤكد أن النبيّ الكريم ﷺ ما خاض غمار

حرب إلا وهو مضطر لذلك حتى يدفع عدواناً واقعاً أو متوقعاً، فالحروب كانت مفروضة على الإسلام فرضاً ولا خيار له في خوضها[1].

وذلك كما قال الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود: «... وتحققنا بأن القتال في الإسلام إنما شرع دفاعاً عن الدين، ودفع أذى المعتدين على المؤمنين... إن الإسلام يسالم من سالمه، ولا يقاتل إلا من يقاتله، أو يمنع نشر دعوته، ويقطع السبيل في منع إبلاغها للناس، فإنهم بمنع إبلاغها يعتبرون بأنهم معتدون على الدين وعلى الخلق أجمعين»[2].

وهو ما انتهى إليه الأستاذ ظافر القاسمي بعدما ساق الأقوال والنظريات المختلفة حول مشروعية الحرب، وحللها وناقشها في الفصل الثالث عشر: «متى تكون الحرب مشروعة؟»، قال: «أما النظرية الثانية القائلة بـ: أن الحرب المشروعة هي حرب الدفاع ومنع الفتنة: فإنها وحدها النظرية التي أرادتها الشريعة، وهي التي عمل بها صاحب الشريعة ﷺ... بل هي الحقيقة الوحيدة الواجبة الاتباع، لا سيما وأن صحابته، والخلفاء الراشدين الذين جاؤوا من بعده، قد استمسكوا بها استمساكهم بالعروة الوثقى»[3].



---

(١) لا يستنبط من ذلك أن الإسلام ليس له حق جهاد الدعوة.

(٢) الجهاد المشروع في الإسلام، نقلاً عن الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام، ظافر القاسمي: ص١٨٣.

(٣) الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام: ص٢٢٨.



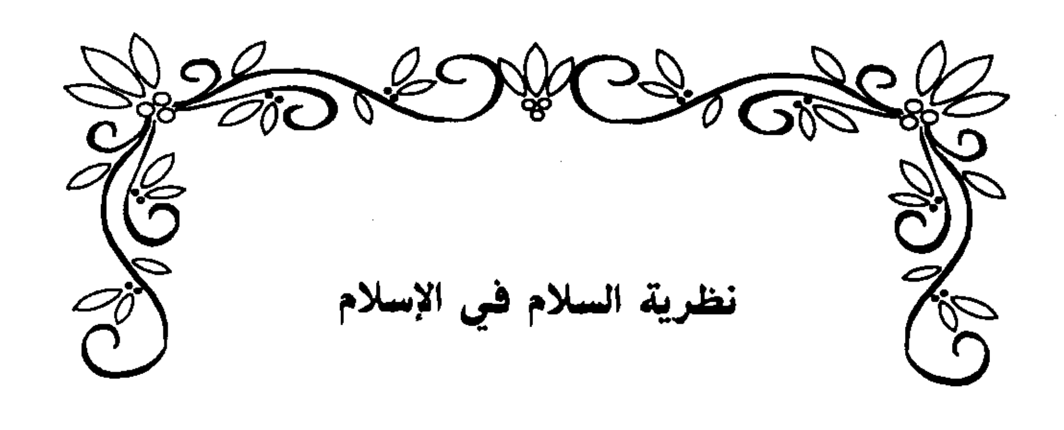
نظريتا السِلام والحرب في الإسلام

وبعد تتبعنا لأخلاق النبيّ ﷺ في غزواته، تعرفنا على الكثير من أخلاق الإسلام في الحرب، ولعل إحصاءها جميعاً أمر عسير، لكن يمكننا أن نتصورها إذا ما عرفنا إطارها العام، وذلك من خلال تناولنا للنظرية التي تحكم هذه الأخلاق، والحق أنها نظريتان وليست واحدة، وهما نظريتا السلم والحرب في الإسلام، وبذلك يكمل الموضوع.

وكلاهما عبارة عن نظرية متكاملة وقائمة بحد ذاتها في الإسلام: نظرية السلام ونظرية الحرب، وقد درسهما العلماء والمفكرون والباحثون، جزاهم الله خيراً.

وسنتناول فيما يلي خلاصة وافية عن الجانب الأخلاقي من هاتين النظريتين، لكونهما وثيقتا الصلة بموضوع هذا البحث.





نظرية السلام في الإسلام

السلام في الإسلام عبارة عن نظرية إنسانية متكاملة، وهي احترام وتكريم النوع الإنساني، كما أنه نظرية شاملة لكل الناس: أفراداً وأسرة وجماعات ومجتمعات إنسانية عالمية، في إطار من الكرامة والعزة والمساواة وإرادة الخير والحق، وشاملة لكل أحوال الإنسان: النفسية والاجتماعية والمالية، في توازن تام.

يبدأ الإسلام في مسيرته لتحقيق السلام من سلام الضمير، لأنه اللبنة الأولى في بناء الجماعة، فيسكب في النفس السكينة والأمن بالإيمان بالله تعالى والثقة في رحمته ورعايته، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وسلام البيت: فالبيت سكن وفيه تنبت الطفولة، فالفرد الذي لا يستمتع في بيته بالسلام لن يكون عامل سلام، ولذا يحرص الإسلام على أن تقوم البيوت على الاستقرار والمودة والرحمة، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وسلام المجتمع: يقر الإسلام أن العلاقة بين الفرد والمجتمع هي علاقة الود والرحمة، وعلاقة التضامن والتعاون، وعلاقة الأمن والسلام، كل ذلك يقوم وفق قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وسلام العالم: المسلمون أمة واحدة والبشرية كلها بشرية واحدة، والمسلمون مكلفون بإيصال هداية الله إلى الإنسانية لترشد وتنعم بالخير واتباع الحق، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهكذا فإن الإسلام ينشد السلام الداخلي والخارجي، ويسعى فعلاً إلى تحقيق الاستقرار داخل الأمة الإسلامية وإلى الاستقرار في علاقتها بالأمم الأخرى.

فالإسلام هو دين السلام: فهو سلام في اسمه، وسلام في تحيته، وسلام في ليلة نزوله، وسلام في اسم ربه، وسلام في عقيدته ما بين العقل والإيمان، وسلام فيما بينه وبين أصحاب الأديان، وسلام وإحسان في مطالب الحياة، وسلام وبر فيما بين المسلمين وغيرهم ما لم يعتدوا عليهم أو يقفوا في طريق الدعوة إلى الله تعالى[١].

وتحية الملائكة للبشر في الآخرة السلام، ومستقر الصالحين عند ربهم دار السلام، وكثرة تكرار هذا اللفظ ـ السلام ـ مع إحاطته بالجو الديني النفسي، من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها، ويوجه الأفكار والأنظار إلى هذا المبدأ السامي العظيم[٢].

ضمانات الإسلام لإقرار السلام:

خطا الإسلام في سبيل إقرار السلام العالمي أوسع الخطوات ووضع لذلك أدق الضمانات، ومنها:

١ ـ تقديس معنى الإخاء بين الناس والقضاء على روح التعصب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]،

(١) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلم، عثمان جمعة ضميرة: ص٣٥ ـ ٤٢.
(٢) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق: ص٢٠٥ ـ ٢٠٧.

فقد شجع الإسلام الناس أن يتعارفوا في دائرة الأخوة الإنسانية، وأن يتعاونوا على البر والتقوى وعلى ما فيه خير البشرية.

٢ ـ الإشادة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح والبر والإحسان.

٣ ـ فرضية الوفاء بالعهود والمواثيق التي تحفظ السلام والأمن وتبعث في النفوس الطمأنينة، وتحريم الغدر بكل أنواعه، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

٤ ـ حصر فكرة القتال في أضيق الحدود، وتحريم العدوان بجميع صوره، وإشاعة الرحمة والعدل واحترام النظام، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

٥ ـ التأمين المسلح[(١)]، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

ليست هذه المعاني التي يحملها الإسلام ويدعو إليها كلاماً نظرياً غير قابل للتطبيق، ولا شعارات لتجميل صورته ولو خالفت حقيقته، معاذ الله لقد كانت واقعاً ملموساً عاشه الناس من مسلمين وغيرهم طوال قيام الحضارة الإسلامية، والتاريخ يشهد على ذلك، والمنصفون من الغربيين يقرون به.

وإليك مثالاً حياً عما يدعو إليه الإسلام:

---

(١) انظر: المرجع السابق: ص٩٥ ـ ٩٦.

علاقة المسلمين بغيرهم في دار الإسلام:

قسم بعض الفقهاء العالم إلى قسمين:

دار إسلام: وهي ما غلب فيها المسلمون.

دار كفر: وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

دار حرب: وهي التي ليس بينها وبين المسلمين عهد وميثاق، سواء كانت مع المسلمين في حرب فعلاً، أو كان يتوقع منها وقوع الحرب.

دار عهد: وهي التي بينها وبين المسلمين عهد وميثاق، وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل الذمة، وأهل الأمان (المستأمنون)، وأهل الهدنة[1].

تضم دار الإسلام بين رعاياها أشخاصاً غير مسلمين وهم أهل الذمة والمستأمنون.

فالذمي يعتبر مواطناً من مواطني الدولة الإسلامية، وقد جرى العرف عند المسلمين أن يسموا المواطنين من غير المسلمين في المجتمع الإسلامي بـ: أهل الذمة، والذمة معناها: العهد والضمان والأمان، وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين[2].

والمستأمن هو من دخل دار الإسلام لمدة محدودة، يدخلها بعقد يسمى: «عقد الأمان»، أو بمجرد منح الأمان. والأصل في مشروعية هذا العقد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦].

ويصح عقد الأمان من إمام المسلمين، كما يصح من واحد من الرعية ما لم يكن فيه ضرر على المسلمين، وسواء كان هذا الفرد رجلاً أو امرأةً أو صبياً[3]، لقوله ﷺ: **«ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر**

---

(١) انظر: المرجع السابق: ص٥٦ ـ ٥٨، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، إسماعيل إبراهيم أبو شريعة: ص٢٩١.

(٢) انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي: ص٧.

(٣) انظر: الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، ظافر القاسمي: ص٤٣١ ـ ٤٣٦، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، أبو شريعة: ص٣٧٧ وما بعدها.

مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً[1]»[2].

ولكل منهما أحكام خاصة، ونحن نقف عند الآداب والأخلاق التي يلتزم بها المسلمون مع أهل الذمة والأمان.

آداب وأخلاق المسلمين مع أهل الذمة والأمان:

أساس العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وأهل الأمان ما داموا في دار الإسلام فهم في ذمة المسلمين، وما يضمن تحقق آداب وأخلاقيات المسلمين نحو أهل الذمة والأمان، في أن الشريعة الإسلامية أوجبت على المسلمين بأن يحافظوا على حقوق هؤلاء وأن يعينوهم على بلوغها، وإذا اعتدى المسلم على هذه الحقوق فهو آثم وعاص، وقد توعّده الله تعالى بالعقوبة.

وحقوق أهل الذمة في الإسلام هي:

١ ـ **الحماية من الاعتداء الخارجي**: أوجب الإسلام على المسلمين حماية أهل الذمة من أي خطر خارجي يتهددهم، وقد أجمع العلماء على أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالسلاح، ونموت دون ذلك.

٢ ـ **الحماية من الظلم الداخلي**: ذلك أمر يوجبه الإسلام ويشدد في

---

(١) أي: لا فريضة ولا نافلة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن علي، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم، رقم (٦٨٧٠): ٢٦٦٢/٦، ومسلم عن أبي هريرة، كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧١): ٩٩٩/٢.

وجوبه، ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم وألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى، قال رسول الله ﷺ: «**مَن آذى ذمياً فأنا خصمه، ومَن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**»(١).

وحق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن ما يلي:

أ ـ حماية الدماء: فدماؤهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع، وإذا قتل المسلم ذمياً فأرجح الأقوال أنه يقتل به، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**مَن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**»(٢).

ب ـ حماية الأبدان من الضرب والتعذيب: لا يجوز إلحاق الأذى بأجسامهم ولو تأخروا عن أداء الواجبات المالية المقررة عليهم.

ج ـ حماية الأموال: ومثل حماية الدماء والأبدان حماية الأموال، فمن سرق مال ذمي قطعت يده، ومن غصبه عُزِّر وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه، حتى من أتلف خنزيراً أو خمراً لذمي غرم قيمتهما.

ولا يجوز للمسلم أن يخرج للجهاد إن كان عليه دين حَالٌ لغير المسلم، إلا بإذنه، أو يقيم كفيلاً، أو يعطي رهناً، أو يكون له من يقضيه عنه.

عن أبي قتادة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، يكفر الله عني خطاياي؟»، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، فلما أدبر ناداه رسول الله ﷺ أو أمر به فنودي، فقال رسول الله ﷺ: «**كيف قلت؟**»،

---

(١) أورده المناوي في فيض القدير: ١٩/٦، والعجلوني في كشف الخفاء، رقم (٢٥٢٩): ٣٤٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، رقم (٢٩٩٥): ١١٥٥/٣.

فأعاد قوله، فقال النبيّ ﷺ: **«نعم، إلا الدين، كذلك قال لي جبريل عليه السلام»**[1].

د ـ حماية الأعراض: يحمي الإسلام عرض الذمي وكرامته، كما يحمي عرض المسلم وكرامته، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل أو يشنع عليه بالكذب، أو يعاتبه ويذكره بما يكره في نفسه أو نسبه أو خُلُقه أو خَلْقه أو غير ذلك مما يتعلق به.

هـ ـ التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر: الضمان الاجتماعي في الإسلام مبدأ عام يشمل أبناء المجتمع جميعاً، مسلمين وغير مسلمين، ولا يجوز أن يبقى في المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج، فإن دفع الضرر عنه واجب ديني.

و ـ حرية التدين: يحمي الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة حق الحرية، وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يجبر على تركه إلى غيره، ولا يضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام، لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

وكذلك صان الإسلام لِغير المسلمين معابدهم ورعى حرمة شعائرهم، بل جعل القرآن من أسباب الإذن في القتال حماية حرية العبادة، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ز ـ حرية العمل والكسب: لغير المسلمين حرية العمل والكسب،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم (٤٦٥٤): ٥١١/١٠، والنسائي في المجتبى، باب من قاتل في سبيل الله تعالى وعليه دين، رقم (٣١٥٥): ٣٣/٦.

ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين، عدا عقد الربا فهو محرم على الجميع، كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين.

وأما في غير ذلك فيتمتع الذميون بتمام حريتهم في مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة.

ح - تولي وظائف الدولة: لأهل الذمة الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ورئاسة الدولة والقيادة في الجيش والقضاء بين المسلمين والولاية على الصدقات ونحو ذلك(١).

من خلال هذه الآداب التي ألزم بها الإسلام المسلمين في تعاملهم مع أهل الذمة، يتبين لنا بما لا مجال للريب فيه مدى رفعة الإسلام ومثالية حكمه.

وإليك نموذج عملي آخر من رفعة الإسلام وسمو أخلاقه:

حرمة المعاهدات في الإسلام:

يعتبر الإسلام الناس جميعاً أمة واحدة، لا تفرقها الألوان والأقاليم والجنسيات، رغم اختلاف الأديان، فالأخوة الإنسانية ثابتة، ويجب وصلها، قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم، والمودة موصولة لا يقطعها القتال

---

(١) لخصنا هذه الآداب والأخلاقيات من كتاب «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» للدكتور يوسف القرضاوي: ص٩ - ٢٥. وانظر: الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام: ص١٣٥ وما بعدها.

ولا الاختلاف، ورعايا الأعداء الذين لا يشتركون في القتال، أو اشتركوا وسمح لهم بالدخول إلى دار الإسلام بعقد أمان أو بهدنة، فمودتهم لا تنقطع، ولا يؤذون في أموالهم ولا في أنفسهم، ولهم مطلق الحرية في التمتع والترحال في ديار الإسلام.

فالشريعة الإسلامية وسعت نطاق عقد المعاهدات بين الأمم، وفرضت احترام المواثيق جميعاً حتى جعلتها فوق واجب التضامن الديني، لما للمعاهدات من أهمية عظمى لتسوية العلاقات وفض المنازعات بالطرق السلمية، لذا أحاط الإسلام المعاهدات باحترام كبير وهيأ لها كثيراً من الضمانات.

والعهود والمواثيق التي عقدها الرسول ﷺ تدور في هدف واحد هو نشر دعوة الإسلام بالطرق والوسائل السلمية.

وعليه أوجب الإسلام على كافة المسلمين الوفاء بعهودهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وجعل الله تعالى حفظ الأمانة والعهد من صفات المؤمنين الصادقين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨].

والخروج من فضيلة الوفاء، هو خروج من الإنسانية كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦].

والمعاهدات في الإسلام ليست للسيطرة والتملك والاستدمار، ولا هي وسيلة لغش الشعوب وخداعها، بل من أجل إقرار السلام في أنحاء الأرض كلها[1]، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا

(١) انظر: نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، إسماعيل أبو شريعة: ص٤٣٣ ـ ٤٣٥، الرسالة الخالدة، عبدالرحمٰن عزام: ص١٥٦ وما بعدها.

تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١، ٩٢].

وليس للوفاء بالعهد جزاء إلا الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَرِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ٨ ـ ١١].

«إن وفاء الإسلام بالعهود بلغ حداً من الدقة والسمو لم تعرفه إلى اليوم أرقى المؤسسات الدولية وأحدث الدساتير العالمية...

بل إن الإسلام يؤخر التناصر الثابت بحق الأخوة المشترك في الدين، ويقدم عليه المعاهدات المعقودة، فحق العهد مقدم على حق الدين، ولو مع قوم كافرين»(١)، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: ٧٢].

ويجدر بنا أن نذكر بمفخرة أخرى من أخلاقيات الإسلام في هذا المجال:

حرص الإسلام على الأمان:

يحتاج الأشخاص وكذا الأموال إلى الانتقال من دار إلى أخرى في السلم والحرب، لذا اهتم الإسلام بتوفير الأمان للأشخاص والأموال.

قال وهبة الزحيلي: «نظام الأمان في الإسلام يتسع لكل أنواع الحماية والرعاية المعروفة حديثاً، لشخص الأجنبي وماله في بلاد الإسلام، أو لعقد الصلات السلمية بين المسلمين وغيرهم...

وليس الأمان مقصوراً على مجرد سماع ما يتعلق بالإسلام وعقائده،

---

(١) تأملات في الدين والحياة، محمد الغزالي: ص٣٠ ـ ٣١، وانظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق: ص٢١٥ ـ ٢١٨.

وأن مدة الأمان تنتهي بانتهاء هذا الغرض، وإنما يظل الأمان ثابتاً للشخص طوال الأجل الممنوح له، رغم قيام الحرب مع قوم ذلك الشخص.

إذن في ظل نظام الأمان تستمر العلاقات غير العدائية مع أهل الحرب، وإن كانت الحرب مستعرة أوارها...

وعلى الجملة: فالأمان في الإسلام لا يعتبر فقط بمثابة جواز سفر لدخول الإقليم وإذن بالإقامة، يتمكن به المسلمون وغيرهم من تبادل المنتجات وتقوية أواصر التعاون وزيادة التفاهم والمودة بينهم، وإنما يعتبر أكثر من ذلك، فهو عقد لفرد أو معاهدة لأكثر من فرد، يصبح به المستأمن كالذمي في الأمان...

وبذا يثبت أن الإسلام شغوف بالسلام، وأنه يعتبر أصل العلاقة مع غير المسلمين هي السلم وليست الحرب»[(١)].

فالإسلام السمح قام على أسس من الأخلاق السامية الثابتة، المحكومة بنصوص تشريعية ربانية خالدة، لم يضعها بشر، ولن يقدر على الزيادة فيها أو النقصان منها أو التغيير فيها أحد.



---

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي: ص٢٢٠ وما بعدها.



نظرية الحرب في الإسلام

الإسلام دين السلام والرحمة والإحسان، يؤثر السلم على الحرب، فإذا لم يكن بد من الحرب فهي شر لا مندوحة عنه.

معنى الجهاد:

استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد على ثلاثة مستويات:

مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

وكلمات: القتال والحرب والجهاد، كلمات تلتقي في بعض معانيها وتختلف في أخرى، وقد يُطلق بعضها على الآخر، وأدق مصطلح هو كلمة الجهاد، وهي الأكثر استعمالا في القرآن والسنَّة، ونحن إذا استعملنا كلمة قتال أو حرب فإننا نقصد بذلك معنى الجهاد.

حكم الجهاد:

أجمع العلماء على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت في الجهاد، تدل على أن الجهاد فرض لا يسع تركه.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الجهاد فرض كفاية إن لم يكن النفير عاماً، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

غاية الجهاد في الإسلام:

حدد الإسلام غاية الجهاد بأن يكون في «سبيل الله» لتكون كلمة الله هي العليا، دون أية غاية أخرى من حب الغلبة أو الشهرة أو التسلط، أو التملك، . . . إلخ.

وهذا البيان لغاية الجهاد هو ما أوضحه القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة أوضح بيان، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠، ١١].

وفي السنَّة عن أبي موسى الأشعري قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[(١)].

دواعي الجهاد في الإسلام:

جاءت دواعي الجهاد في الإسلام لأغراض سامية وغايات نبيلة، وهي تنحصر فيما يلي:

١ ـ **الدفاع**: ويشمل الدفاع عن الدين والنفس والعرض والوطن والمال، فيما إذا دهم العدو ديار الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً، رقم (١٢٣): ٥٨/١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليل فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤): ١٥١٣/٣.

ويدخل ضمن هذا أيضاً إنقاذ المستضعفين وحمايتهم، سواء كانوا من المسلمين في دولة أجنبية وفُتنوا في دينهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

أو من غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية إذا ما هوجموا من طرف دار الحرب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

ويشمل كذلك منع الفتنة التي قد تحدث داخل المجتمع المسلم، كالبغي وقطع الطريق (الحرابة) وخيانة العهود والمواثيق، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٣٣]، وقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: ١٢، ١٣].

٢ ـ **تأمين حرية نشر الدعوة الإسلامية**: فالإسلام دعوة إنسانية عالمية، يجب إبلاغه للناس جميعاً ليختاروا عن قناعة وإرادة: الإيمان أو الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فإذا وقفت قوى الشر والعدوان أمام حملة الرسالة الإسلامية ومنعوا

الدعاة مستعملين وسائل العنف والإرهاب، عندئذٍ يجب الجهاد لتأمين وصول دين الله إلى عباد الله[1]، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

هذا الذي يجاهد المسلمون من أجله وهذا الذي يكون في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، وأما ما عداه فالإسلام لا يقره.

فالإسلام يمنع الحروب التي تثيرها العصبية العنصرية البغيضة، ويمنع الحروب التي تهدف إلى توسيع رقعة أرض أو بلد على حساب بلاد أخرى، ويمنع الحروب التي تثيرها المطامع والمنافع وهي حروب الاستدمار والاستغلال والبحث عن الأسواق والخامات وتأمين طرق المواصلات والقواعد الحربية، ومنع الحروب التي يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والأبطال والقادة، ويمنع الحروب التي يثيرها حب الانتقام والهوى والشهرة، ويمنع حروب الثارات والحروب التي تثيرها الصراعات الطبقية[2].

وبدأ الإمام ابن تيمية رحمه الله رسالته في القتال بهذا السؤال:

«هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم أم لمجرد كفرهم؟ ثم أجاب: قول الجمهور كمالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم، فهؤلاء يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم... وقول الجمهور هو الذي يدل عليه الكتاب والسنّة والاعتبار...»[3]، ثم حشد كثيراً من الآيات والأحاديث التي تثبت صحة هذا القول.

---

(١) أجملنا هذه الدوافع في دافعين اثنين، لأننا رأينا أن الدوافع التي فصل فيها بعض الباحثين داخلة ضمن الدفاع عن النفس. وانظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي: ص٨٤ وما بعده، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية: ص٣٣ ـ ٤٥، منهج الإسلام في الحرب والسلام: ص١٢٨ ـ ١٣١، وهناك من فصل هذه الدوافع فجعلها ثلاثة: منع الفتنة، وتأمين الدعوة، والحفاظ على الدم والمال والعرض، والنتيجة واحدة. انظر: مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي: ص٨٦.

(٢) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق: ص٢٠٩ ـ ٢١١.

(٣) عن مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي: ص٧٧.

مقدمات القتال:

ولأن الجهاد في الإسلام في سبيل الله، فهو لا يبدأ بالقتال إلا بعد مقدمة تتمثل في مرحلتين:

أولاً ـ الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

يجب على المسلمين قبل بدء القتال أن يبلغوا الإسلام للكفار ويبيّنوا لهم حقيقته، ويحاوروهم بأحسن الأساليب وألطفها، ويجيبوا عن كل استفساراتهم، وأن يتريثوا معهم ويصبروا عليهم ولا يستعجلوا، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فيحرم على المسلمين القتال قبل تبليغ الدعوة، ليكون الناس على بينة من حقيقة الإسلام، ثم ليفكروا فيما دُعوا إليه، وليتحملوا بعد ذلك مسؤولية موقفهم المختار[(١)].

ثانياً ـ النبذ، تحرزاً عن الغدر:

وهذه الحالة تنشأ حين يكون بين المسلمين وغيرهم معاهدة، وبدا من غير المسلمين الخيانة والاحتيال على نقض العهد، فلا يجوز للمسلمين قتالهم إلا بعد المنابذة، أي: إنذار الخائنين بأن المسلمين يعتبرون المعاهدة

(١) لا يمكن أن يحتج البعض هنا بحادثة بني المصطلق بأن المسلمين أغاروا عليهم على غرة، لأن الدعوة كانت قد بلغتهم من قبل وقابلوها بالرفض وبدأوا يستعدون لمباغتة المسلمين، فسبقهم المسلمون لعنصر المباغتة.

ثم كيف يُحتج بحالة فريدة شاذة ويترك تاريخ برمته؟ فهذه سيرة الرسول ﷺ كاملة وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده ومن تبعهم بإحسان طوال قيام الحضارة الإسلامية، كل ذلك شهود عدول على أن المسلمين ما هاجموا أحداً باسم الإسلام بغتة، إلا مرة واحدة بسمرقند، ولما تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز وعلم بالخطأ الذي حصل، كلف القاضي جميع بن حاضر ليحكم بين جيش المسلمين والأهالي، وحكم القاضي لصالح الأهالي. والقصة معروفة ومشهورة.

ملغاة، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ [الأنفال: ٥٨].

ولا بد للنبذ والإعلان أن يكون قبل بدء القتال بمدة كافية، تحرزاً عن الغدر، وحتى يعود العدو إلى حصونهم أو يستعدوا لقتالنا[١].

عن شريح بن عبيد قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه أو سراياه قال لهم: «**تألفوا الناس ولا تغيروا على حي حتى تَدْعوهم إلى الإسلام، فوالذي نفس محمد بيده، ما من أهل بيت من وبر ولا مدر**[٢] **تأتوني بهم مسلمين، إلا أحب إليّ من أن تأتوني بنسائهم وأبنائهم وتقتلون رجالهم**»»[٣].

نحن حملة نور ولسنا حملة نار، ونحن حملة هداية وخير للبشرية وليس من أخلاقنا الغدر ولا الحسد، ولا يوجد في نفوسنا مثقال ذرة من حقد على أحد.

فالخيانة والغدر خصلتان محرمتان على المسلمين، حتى ولو صدرت الخيانة والغدر من العدو، فلا يجوز للمسلمين أن يخونوا ويغدروا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك، ولا تخن مَن خانك**»[٤].

من يجوز قتالهم ومن لا يجوز:

قصر الإسلام القتال على الذين يقاتلون حقيقةً أو حكماً، وهم

---

(١) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام، عثمان جمعة ضميرة: ص١٧٠ ـ ١٧٤، الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، ظافر القاسمي: ص٣٨٨ ـ ٣٩١.

(٢) الوبر: هو صوف الأنعام، والمدر: هو الطين، وأهل الوبر: هم سكان البادية، وأهل المدر: هم سكان القرى والمدن.

(٣) أخرجه الحارث والهيثمي في مسند الحارث (زوائد الهيثمي)، كتاب الجهاد، باب منه في الدعاء إلى الإسلام، رقم (٦٣٧): ٦٦١/٢.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، رقم (١٦٤): ٥٦٤/٣، وأبو داود في سننه، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٤): ٢٩٠/٣.

العسكريون ومن في حكمهم، وذلك هو عين العدل والإنصاف، فإذا كان الإسلام أباح الحرب كضرورة من الضرورات، فإنه يجعلها مقدرة بقدرها، فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة، وذلك أن الحرب كعملية جراحية لا يجب أن تتجاوز موضع المرض بمكان[1].

وعليه فهناك أصناف ستة لا يجوز قتالهم، وهم:

١ ـ **النساء**: اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز قتل النساء في حرب ولا في غيرها إلا أن يقاتلن، فحينئذ يقاتلن مقبلات لا مدبرات.

٢ ـ **الصبيان**: إذا لم يقاتل الصبي فإنه لا يقتل.

٣ ـ **الرهبان ورجال الدين**: لا يقتل الرهبان ورجال الدين الذين لا يقاتلون.

٤ ـ **الزمنى وأصحاب العاهات**: لا يقتل هؤلاء لأنهم لا يشاركون في القتال.

٥ ـ **الشيوخ (كبار السن)**: من كبرت سنه وكان لا يقاتل ولا رأي له في الحرب، فلا يقتل.

٦ ـ **العمال والفلاحون**: أولئك الذين يُستأجرون للعمل ولا يحاربون، فلا يُقتلون[2].

تلكم هي أحكام الشريعة الإسلامية الغراء وآدابها ونبلها في منع قتل تلك الأصناف الآمنة المطمئنة التي عزفت عن الاشتراك في الحرب، فصان الإسلام حرمتها، فأين هذا مما فعله ويفعله أعداء الإسلام قديماً وحديثاً؟[3].

---

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق: ص٢١٢، الرسالة الخالدة، عبدالرحمٰن عزام: ص١١٦ وما بعدها.

(٢) الأدلة من السنّة ووصايا الخلفاء الراشدين وقادة الفتوحات كثيرة على عدم جواز قتل هذه الأصناف، تجاوزناها قصد الاختصار، فلتنظر في مضانها.

(٣) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام، ضميرة: ص١٧٧ ـ ١٨٥، الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام: ص٣١٨ ـ ٣٢٢، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، أبو شريعة: ص١٩٥ وما بعدها.

حرمة تخريب الممتلكات وقتل الحيوانات:

وفيما يتعلق بقطع الأشجار وتخريب البيوت والزروع، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «والخلاصة التي انتهينا إليها من مراجعة أوجه النظر المختلفة ومراجعة مصادر الشريعة ومواردها ما يأتي:

أولاً: إن الأصل هو عدم قطع الشجر وهدم البناء لأن الغرض من الحرب دفع أذى الحاكم الظالم، لا إيذاء الرعية.

ثانياً: أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء ضرورة حربية لا مناص منها حين يستتر العدو بها ويتخذ منه وسيلة لإيذاء الجيش الإسلامي، فإنه لا مناص من قطع الشجر وهدم البناء.

ثالثاً: أنه يخرج كلام الفقهاء الذين أجازوا قطع الشجر وتخريب العمران على أنه مقصور على هذه الضرورة»[(١)].

ويضاف إلى الممتلكات الحيوانات، فلا يجوز ذبح حيوان أو الاعتداء عليه إلا لأكل[(٢)].

تلك هي آداب وأخلاقيات المسلمين في حروبهم مع أعدائهم، فلا يلحقون أي ضرر أو إفساد بالممتلكات، إلا لضرورة ملحة.

تحريم المثلة والحرق بالنار:

يدعو الإسلام دائماً إلى التمسك بالفضيلة في جميع الحالات خصوصاً في الحرب، حتى لو انتهك عدونا الفضيلة واعتدوا على حرمة النساء ما جاز لنا أن نفعل ذلك، وإذا كان العدو يمثل بالقتلى فيشوه أجسامهم بعد قتلهم، فلا يجوز لنا أن نجاريه في ذلك، عن قتادة: «أن النبيّ ﷺ كان يحث على

---

(١) العلاقات الدولية، محمد أبو زهرة: ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) انظر: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام، ظافر القاسمي: ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

الصدقة وينهى عن المثلة»[1].

وقد نهى الإسلام أيضاً عن التعذيب بالنار أشد النهي، واعتبره اعتداء على حق الألوهية، إذ لا يعذب بالنار إلا الله عزَّ وجلَّ، قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**»[2].

الإنسانية والرفق أثناء الحرب:

الرفق والإنسانية الفاضلة ملازمة للإسلام لا تفارقه في سلم أو حرب، مع الأصدقاء والخصوم، فما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نُزع من شيء إلا شانه، وكما كان نبيّ الإسلام ﷺ رحيماً ورفيقاً في أمره كله، كان أصحابه رضوان الله عنهم كذلك، فبعد انهزام المشركين في غزوة حنين جاء وفد هوازن يشكوا إلى النبيّ ﷺ ما حل به، فردّ عليهم النبيّ ﷺ نساءهم وأبناءهم، وأعطى لقائدهم مالك بن عوف مائة من الإبل ورد عليه أهله وماله.

ولقد تكرر هذا الموقف كثيراً في سيرته ﷺ في غزوة بني المصطلق وفتح مكة وغيرهما، كما حصل كثيراً في تاريخ الخلافة الراشدة والحضارة الإسلامية.

أرأيت إلى هذا الأفق الرفيع الوضيء السامي من الخلق والإنسانية عند الرسول ﷺ والمسلمين؟[3].

آثار الحرب في الأشخاص والأموال:

إذا وقعت الحرب بين الدولة الإسلامية وغيرها، فما هي الآثار المترتبة على رعاياهم وأموالهم التي عند الدولة الإسلامية؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، رقم (٣٩٥٦): ١٥٣٥/٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه عن عبدالرحمٰن بن عبدالله عن أبيه، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥): ٥٥/٣، والبيهقي في السنن الكبرى، باب المنع من إحراق المشركين بالنار: ٧٢/٩.

(٣) انظر: منهج الإسلام في الحرب والسلام، ضميرة: ص١٩٣ . ١٩٤.

أولاً ـ رعايا الدولة المحاربة:

إذا سمحنا للرعايا الأجانب بالإقامة في دار الإسلام بموجب عقد أمان، فلا يجوز اعتقالهم ولا أسرهم ولا تقييد حريتهم ولا الغدر بهم، سواء أثناء قيام الحرب بيننا وبين دولتهم أو بعد انتهاء الحرب.

كما أن الأمان يشمل من يتبع المستأمن كزوجته وأولاده، ويجب على المسلمين نصر المستأمنين إذا وقع عليهم ظلم.

ويتمتعون بالتأمين والتكافل الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر والنكبات.

ثانياً ـ أموال وتجارة رعايا الدولة المحاربة:

لا تمنع حالة الحرب الاتجار بيننا وبين دول الأعداء، ولا حرج في أن تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب جميع البضائع والمنتجات، عدا السلاح.

وقد بلغت سماحة الإسلام وعدالته أن المستأمن إذا عاد إلى بلده ـ دار الحرب ـ فانضم إليهم وحمل السلاح وأصبح محارباً مع قومه ضد المسلمين، وترك ماله عندنا، فماله مصون، وتبقى له ملكيته خالصة يأخذها متى شاء فإن مات أخذها ورثته[١].

آداب معاملة الأسير:

إذا انجلت الحرب على أسرى في يد المسلمين، فقد خطّ الإسلام لأتباعه في معاملتهم للأسرى الآداب الآتية:

ـ المعاملة الحسنة:

أوصى النبيّ ﷺ المسلمين أن يعاملوا الأسرى بالحسنى، فكان

---

(١) انظر: المرجع السابق: ص٢١٦ ـ ٢١٨، نظرية الحرب، أبو شريعة: ص٣٩٨ وما بعدها.

الصحابة يحرصون ويبالغون في حسن معاملتهم حتى أنهم كانوا يفضلونهم على أنفسهم، فعن أبي عزيز بن عمير بن أخي مصعب بن عمير قال: «كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيراً**»، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم»(١).

ـ إطعام الأسير:

جاء في القرآن الكريم الحضّ على إطعام الأسير، فقال الله تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

ـ تبادل الأسرى:

يسعى الإسلام لمبادلة الأسرى من أجل فك أسرى المسلمين وإعادة أسرى العدو إلى أهليهم، فعن عمران بن حصين قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق.

قال: يا محمد، فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**»، فقال: «بم أخذتني؟».

قال: «**أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**»، ثم انصرف عنه.

فناداه فقال: «يا محمد، يا محمد».

وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فرجع إليه فقال: «**ما شأنك؟**».

قال: «إني مسلم».

قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**»، ثم انصرف.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، رقم (٤٠٩): ٢٥٠/١، تاريخ الطبري: ٣٩/٢، سيرة ابن هشام: ١٩٥/٣.

فناداه فقال: «يا محمد، يا محمد».

فأتاه فقال: **«ما شأنك؟»**.

قال: «إني جائع فأطعمني وظمآن فأسقني».

قال: **«نعم، هذه حاجتك»**. ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما[1].

ـ كسوة الأسرى:

أوجب الإسلام كسوة الأسير، فعن جابر بن عبدالله ﵄ قال: «لما كان يوم بدر، أُتي بأسارى وأتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبيّ ﷺ له قميصاً، فوجدوا قميص عبدالله بن أبي يُقَدِّرُ عليه، فكساه النبيّ ﷺ إياه»[2].

الحرص على سلامة الأسير وتوفير المركب الذي يوصله:

يحرص الإسلام على سلامة الأسير من كل ما يؤذيه في بدنه أو ماله أو عرضه، وإذا أطلق سراحه فلا بد من توفير الأمن له، وإن كانت امرأة فالإسلام يبالغ في الحرص عليها فيرسلها مع ثقة يوصلها إلى قومها.

وقعت ابنة حاتم الطائي أسيرة في أيدي المسلمين، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة[3]، فقالت: «يا رسول الله، هلك الولد وغاب الوافد فامنن عليّ، مَنَّ الله عليك»، قال: **«مَن وافدك؟»**، قالت: «عدي بن حاتم»، فقال ﷺ: **«قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد، رقم (١٦٤١): ١٢٦٢/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الكسوة للأسارى، رقم (٢٨٤٦): ١٠٩٥/٣.

(٣) أي: فصيحة.

تجدي من قومك مَن يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني»، فأقامت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة.

قالت: «فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم»[(١)].

حرمة إكراه الأسير على البوح بالأسرار:

لا يجوز إكراه الأسير على الإدلاء بأسرار دولته، قال الإمام مالك رحمه الله تعالى عندما سئل: «أيعذب الأسير إن رُجي أن يدل على عورة العدو؟»، فقال: «ما سمعت بذلك»[(٢)].

آداب معاملة المرضى والجرحى والقتلى:

يجب معاملة جرحى العدو ومرضاه أحسن معاملة وأرفقها، فإذا جُرح العدو أو مرض فيجب علاجه، لأن الأمر بالإحسان إلى الأسرى يتناول علاجهم، كما لا يجوز قتلهم ولا الإجهاز عليهم، لأن الإسلام ينهى عن قتال وقتل غير المقاتلين، والجرحى والمرضى غير مقاتلين[(٣)].

عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**ألا لا يقتل مدبر ولا يجهز على جريح، ومَن أغلق بابه فهو آمن**»[(٤)].

وأما القتلى: فقد أوجب الإسلام حرمة الجثة، فلا يجوز التمثيل ولا الحرق ولا التغريق ولا الإهانة، بل يدفنون تكريماً لإنسانيتهم ووقاية

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٥/٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) انظر: آثار الحرب، وهبة الزحيلي: ص٤٥١ وما بعدها، الجهاد، القاسمي: ص٥٢١ ـ ٥٢٦.

(٣) انظر: نظرية الحرب، أبو شريعة: ص٥٢١.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم (٣٣٢٧٦): ٦/٤٩٨.

لهم وللأحياء من التعفّن وحتى لا تعبث بهم الوحوش، وذهب الشافعية إلى جواز غسل المسلم لقرابته من المشركين ودفنهم[1].

عن يعلى بن مرة قال: «سافرت مع النبيّ ﷺ مرة، فما رأيته مر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو أم كافر»[2].

ويجوز وقف القتال لتمكين العدو من دفن قتلاه، ويؤيد هذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً من المشركين قُتل يوم الأحزاب، فبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً، فقال رسول الله ﷺ: **«لا خير في جسده ولا في ثمنه»**، ثم أمكنهم من أخذه إليهم»[3].

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد بل تعداه إلى تبادل المعلومات مع العدو عن جثث القتلى[4].

وبعد هذا العرض المختصر لنظريتي السلم والحرب يتبين ويتأكد لدينا أن الإسلام يؤثر السلم ويحث عليه ويتخذ الأساليب العملية لترسيخه، ولا يخوض الحرب إلا مضطراً إليها.

والإسلام يبغض الظلم والاستعلاء والاستغلال، وينهى عن الظلم، ويحثنا على نصرة المظلوم.

والداعي إلى الجهاد هو الدفاع عن النفس وإعلاء كلمة الله، وليس

---

(١) انظر: آثار الحرب، الزحيلي: ص٤٧٥ وما بعده، الجهاد، القاسمي: ص٥٢٨ ـ ٥٢٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (١٣٧٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»: ٥٢٦/١، والبيهقي في سننه الكبرى، باب وجوب العمل في الجنائز، رقم (٦٤٠٩): ٣٨٦/٣، والدارقطني في سننه، كتاب السير، رقم (٤١): ١١٦/٤.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا تباع جيفة: ١٣٣/٩.

(٤) انظر: نظرية الحرب، أبو شريعة: ص٥١٣ ـ ٥١٥، آثار الحرب، الزحيلي: ص٤٠٣ وما بعدها.

الاستيلاء على الأوطان والأموال، أو إجبار الناس على الدخول في الإسلام.

وقد نظّم الإسلام أحكام الجهاد، ووضعه في إطار رائع لم تصله القوانين والتنظيمات الدولية القديمة والحديثة.

وقد نظَّم الإسلام الدخول في القتال، كما نظم المعاهدات، ودعا إلى الصلح.

وحرص الإسلام على الجانب الإنساني والاجتماعي في الحرب[1].

لو اتبع الناس تعاليم الإسلام ما شقي فرد في مجتمع، ولبدل الله خوفهم أمناً، فعاشوا في رغد من العيش آمنين.

لقد وضع الإسلام أحكاماً دقيقة، اتسمت كلها بالسماحة والدعوة إلى السلام.



(١) انظر: نظرية الحرب، أبو شريعة: ص٥٣٣ ـ ٥٣٦.



تسامح فريد

أعلى درجة في التسامح: ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم، وإن كنت تعتقد أنَّه حرام في دينك، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة.

وهناك شيء آخر لا يدخل في نطاق القوانين التي تشرف الدولة على تنفيذها، وهو (روح السماحة) التي تبدو في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان.

وتتجلى هذه السماحة في أمثلة واقعية كثيرة: كقول القرآن في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وفي ترغيب القرآن في البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

وفي قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨]، ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين.

وفي قول القرآن يجيب عن شبهة المسلمين في مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم المصرين على شركهم: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: «قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «**نعم، صلي أمك**»»[(١)].

وفي قول القرآن يبيّن أدب الحوار مع المخالفين: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الصحابة لغير المسلمين، فقد أمر عمر بصرف معاش دائم ليهودي وعياله من بيت مال المسلمين، ثم يقول: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، وهذا من مساكين أهل الكتاب».

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة ـ أبي لؤلؤة المجوسي ـ فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت، فيقول: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً: أن يوفى بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفهم فوق طاقتهم»[(٢)].

الأساس الفكري لتسامح المسلمين:

أساس النظرة المتسامحة لدى المسلمين في معاملتهم لمخالفيهم في الدين يرجع إلى الأخلاق والحقائق التي غرسها الإسلام في عقول وقلوب المسلمين، وأهمها:

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين، رقم (٢٤٧٧): ٩٢٤/٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، رقم (١٠٠٣): ٦٩٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر، رقم (١٣٢٨): ٤٦٩/١.

١ ـ اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيًا كان دينه أو لونه أو جنسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٢ ـ اعتقاد المسلم أن الاختلاف في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨]، ومشيئة الله لا راد لها ولا معقب، ولهذا لا يفكر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩].

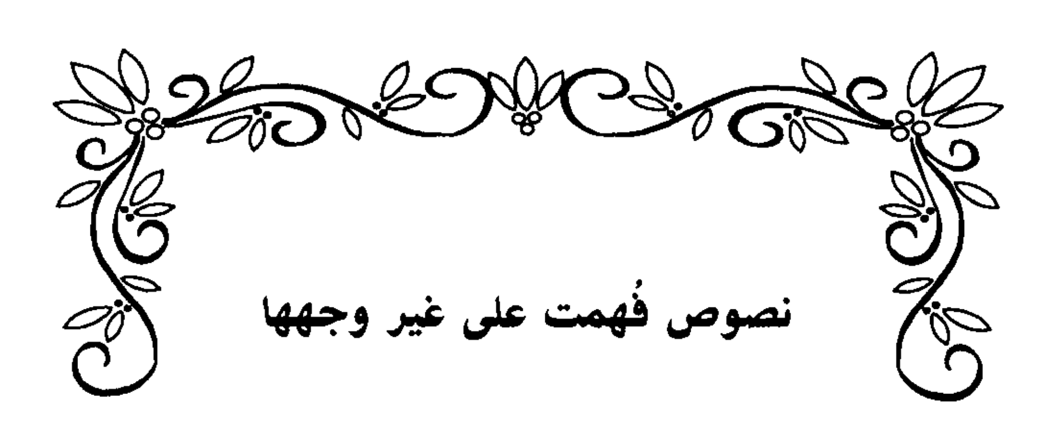
٣ ـ ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩].

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه.

٤ ـ إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر[1]، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].



(١) اختصرنا موضوع «تسامح فريد» من كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، للدكتور يوسف القرضاوي، انظر: ص٤٥ ـ ٥٢.



نصوص فُهمت على غير وجهها

من الناس من يستند إلى بعض النصوص الدينية، يفهما فهماً سطحياً متعجلاً، مستدلاً بها على تعصب الإسلام ضد المخالفين له.

ومن أمثلة ذلك: الآيات التي جاءت تنهى عن موالاة غير المؤمن، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)﴾ [النساء: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [التوبة: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهم البعض من هذه الآيات وأمثالها أنها تدعو إلى الجفوة والقطيعة بين المسلمين وغيرهم، وإن كانوا من أهل دار الإسلام.

والذي يتأمل هذه الآيات تأملاً فاحصاً، ويدرس تواريخ نزولها وأسبابه وملابساته يتبين له ما يأتي:

١ ـ إن النهي إنما هو عن اتخاذ المخالفين بوصفهم جماعة متميزة بديانتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها، لا بوصفهم جيراناً أو زملاءً أو مواطنين.

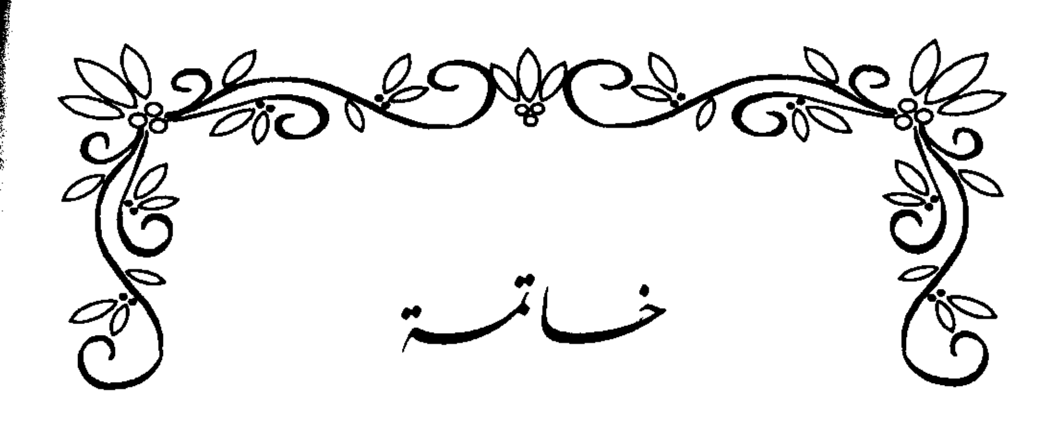
٢ ـ إن الموادة التي نهت عنها الآيات هي موادة من آذى المسلمين وحاد الله ورسوله.

٣ ـ إن الإسلام أباح للمسلم التزوج من أهل الكتاب، والحياة الزوجية يجب أن تقوم على السكون النفسي والمودة والرحمة، كما دل القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وهذا يدل على أن مودة المسلم لغير المسلم لا حرج فيها، وكيف لا يود الرجل زوجته إذا كانت كتابية؟ وكيف لا يود الولد جده وجدته وخاله وخالته إذا كانت أمه ذمية؟[1].



(١) انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي: ص٦٧ ـ ٧٠، الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي: ص٩٥ ـ ١١٥.



خاتمة

أحسب أنه قد تبيَّن لنا ـ بعد هذه الدراسة التي تتبعنا فيها غزوات النبيّ ﷺ، ثم عرجنا على نظريتي السلم والحرب في الإسلام ـ أن أخلاقيات الحرب التي جاء بها الإسلام، أخلاق سامية ورفيعة جداً لم يدانيها غيرها من دساتير ونظم دولية لا في القديم ولا في الحديث، وأن هذه الأخلاقيات حقيقة ثابتة شهدت بها السيرة العملية للنبيّ ﷺ، وشهدت بها نصوص الوحي من الكتاب والسنّة، وشهد بها التاريخ الناصع للصحابة ومن تبعهم بإحسان من هذه الأمة.

والسلام مبدأ إسلامي، فقد صاح الإسلام منذ طلع فجره يدعو إلى السلام، ويضع الخطة الرشيدة التي تبلغ بالإنسانية إليه، فجعل أساس العلاقة بين الأفراد، وبين الجماعات، وبين الدول، علاقات سلام وأمان، ومن مقتضيات هذه العلاقة: تبادل المصالح، واطِّراد المنافع، وتقوية الصلات الإنسانية، والإخاء العالمي.

ولقد حرصت على تبيين سبب كل غزوة من غزوات النبيّ ﷺ قصد توضيح وتأكيد هذه النتيجة:

إن حروب النبيّ ﷺ كانت كلها حروب دفاع ولم تكن حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد وإصرار الأعداء على القتال، أو قتال سلطة تقف في طريق الإسلام وتحول بينه وبين سماع المستعدين لقبول دعوته.

وفي ذلك ما يدحض الشبهة التي يدعي أصحابها أن الإسلام دين هجوم، فأسباب الغزوات كلها تثبت خلاف ذلك تماماً، ليحيى من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

إنه لا يصح لأي دولة على وجه الأرض أن تسمي قواتها المسلحة وزارة الدفاع إلا الدولة الإسلامية، ذلك أننا لم نأخذ من أحد بيضة دجاج غصباً طوال تاريخنا المديد باسم الإسلام، وكل ما في الأمر أننا كنا دائماً في موقف المدافع عن نفسه ووطنه ومقدساته، أو حاملين دين الله تعالى للناس.

وكان في تتبعنا للمواقف الأخلاقية في غزوات النبيّ ﷺ أن توصلنا إلى:

أن رسالة الإسلام رسالة سلاحها الأخلاق الحسنة، وما استعملت القوة إلا وهي مكرهة، وإذا ألجئت إليها ففي حدود ميدان المعركة لا تتجاوزه، وهدفها من استعمال القوة هو توفير الأمن والاستقرار ليصفو الجو لانتشار رسالة الإسلام عن طريق الخلق الحميد.

وأن الآداب التي عامل بها النبيّ ﷺ غير المسلمين في الحرب والسلم وتربى عليها الأصحاب الكرام، آداب إنسانية سامية، بها أثروا في الشعوب والأمم فانجذبت إلى دين الله تعالى عن طواعية وإعجاب، فأسلمت وحسن إسلامها وآمنت وتمكن الإيمان من شغاف قلوبها، ثم سارعت إلى حمل راية الإسلام مبشرة به غيرها ومدافعة عنه إذا ما هدده خطر.

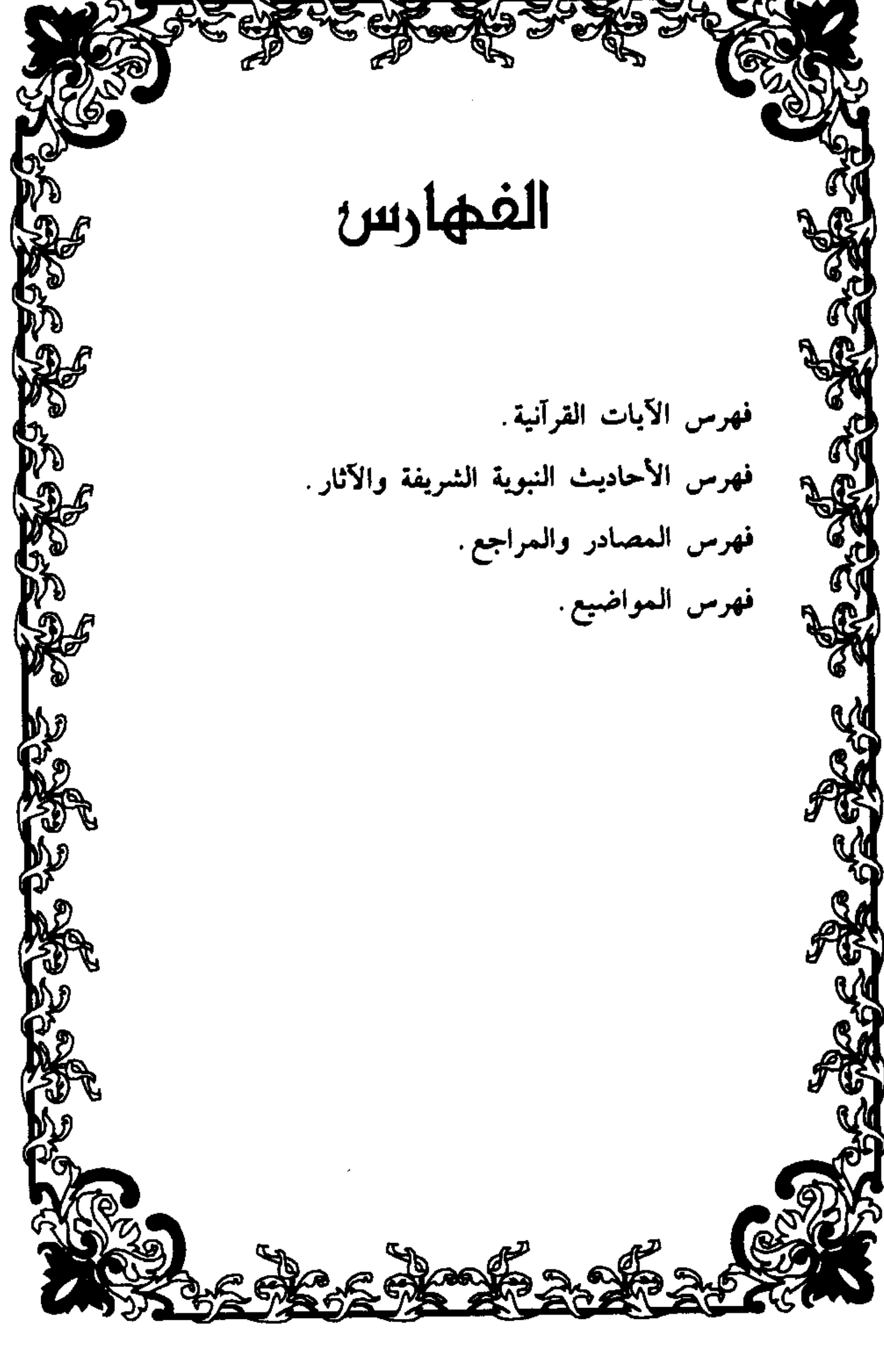
إن سيرة محمد بن عبدالله ﷺ أطهر من المزن، وأنفع من الغيث، وعلى أثره سار أصحابه الأبرار، فكانت سيرته وسيرتهم علامة ناصعة في جبين التاريخ تسر الناظرين والسامعين.

وما تزال سيرة النبيّ ﷺ وصحبه الكرام غنية بالكنوز الغالية التي يفتقر إليها الإنسان في كل زمان ومكان، فما أحوجنا للتنقيب المستمر والبحث الدائم لاستخراجها والانتفاع بها.

وحياة الصحابة تفيض علماً وحكمةً، فحري بالأمة الإسلامية ـ وهي صاحبة هذه التركة العظيمة ـ أن تسخر جهودها وإمكاناتها لدراسة حياة هؤلاء الأفاضل واستخلاص العبر واستنباط الدروس، ثم تربية الناشئة عليها، بأسلوب عصرنا ووسائله، دون إهمال لواقعنا المعاصر، ولا غفلة عما يحيط بنا. كل ذلك من أجل إقلاعٍ حضاري جديد يقوم على الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بطرق علمية مدروسة.

والحمد لله رب العالمين، له وحده المنة والفضل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



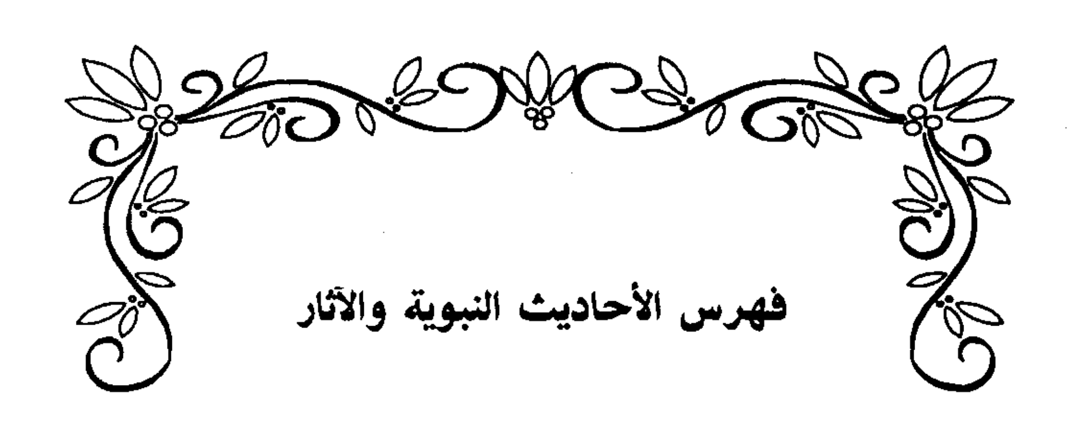
الفهارس





فهرس الآيات القرآنية

□ □ □ □ □ □



فهرس الأحاديث النبوية والآثار

الحديث أو الأثر	الصفحة
انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟...	٨١
بئسما جزيتيها...	٩٠
بل نترفق به ونحسن صحبته	٧٦، ١٦٣
خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني...	١١٨
خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل...	١٨
ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم...	١٨٠
ردوا علي ردائي، أتخافون أن لا أقسم بينكم...	١٤٨
سافرت مع النبيّ ﷺ مرة، فما رأيته مر بجيفة إنسان...	٤٣
سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلاً صالحاً...	١٠
سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين...	٢٣
فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان...	٣٤
فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله...	١٤٩
قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي...	١٧
قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ...	١٤١
قد كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه...	٧
قدمت علي أمي وهي مشركة...	٢٠٤
قوموا فانحروا ثم احلقوا...	٦٧
كان النبيّ ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾	١٠
كان النبيّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب...	٤٤
كان النبيّ ﷺ يبايع النساء بالكلام...	١٣٣
كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود...	١٥٠
كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها	٢٤
كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء فجعل...	٣٦
كن أبا خيثمة...	١٥٨
كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي...	٥٦
لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله...	١٠٢
لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده...	١٣٢

الحديث أو الأثر	الصفحة
ما فعل مَسك حيي الذي جاء به من...	١٢٥
ما كانت هذه لتقاتل...	١٥٠
ما لك يا جابر؟...	٩٧
مَن آذى ذمياً فأنا خصمه...	١٨٢
مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن...	١٢٧
من رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم	٩٤
مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	١٨٩
مَن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة...	١٨٢
مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله	٤٨
مَن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم...	١٩٩
نحن من ماء	٣٠
نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم...	٤١
نُصرت يا عمرو بن سالم...	١٢٣
نعم، اللّهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا	٨٢
نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر...	١٣٥
هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب	٢٩
هذا مصرع فلان. قال ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا...	٢٣
هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها	١٦
هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر...	١٥٧
هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه...	١٤٠
والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً...	٢٩
يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً...	١٣٨
يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت...	١٠٠
يا أبا جندل، اصبر واحتسب...	٩٨
يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت في سبيل الله صابراً...	١٨٢
يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني...	٥٢
يا محمد، أحسن في موالي ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ فأبطأ...	٨٤

□ □ □ □ □ □



فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ ـ **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، وهبة الزحيلي، طبعة دار الفكر، دمشق ـ سوريا، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢ ـ **الأدب المفرد**، محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة إستانبول، طبعة ١٣٠٤هـ.

٣ ـ **الإسلام والاستبداد السياسي**، محمد الغزالي، طبعة دار القلم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤ ـ **البداية والنهاية**، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، طبعة دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٥ ـ **تأملات في الدين والحياة**، محمد الغزالي، طبعة دار المعرفة، الجزائر، بدون سنة طبع.

٦ ـ **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر**، عبدالعزيز الحميدي، طبعة دار الدعوة، الإسكندرية ـ مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧ ـ **تاريخ الطبري**، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٨ ـ **التربية القيادية**، منير الغضبا، طبعة دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٩ ـ **تفسير ابن كثير**، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، طبعة دار الفكر، بيروت ـ لبنان، طبعة ١٤٠١هـ.

١٠ ـ **الجامع الصغير للسيوطي**، عبدالرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري، تحقيق عبدالرؤوف المناوي، طبعة دار طائر العلم جدة، بدون سنة طبع.

١١ ـ **الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام**، ظافر القاسمي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
١٢ ـ **خاتم النبيين ﷺ**، أبو زهرة، طبعة دار الفكر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
١٣ ـ **رحمة العالمين**، محمد سليمان سليمان المنصورفوري، طبعة حنيف بكديودلي، طبعة ١٩٣٠م.
١٤ ـ **الرحيق المختوم**، صفي الرحمٰن المباركفوري، طبعة دار الوفاء، وشركة الشهاب، القاهرة، الجزائر، طبعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.
١٥ ـ **الرسالة الخالدة**، عبدالرحمٰن عزام، طبعة دار الشروق، بيروت ـ لبنان، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١٦ ـ **الرسول القائد**، محمود شيت خطاب، طبعة دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية ١٩٦٠م.
١٧ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بـ: ابن قيم الجوزية، طبعة المطبعة المصرية، الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م.
١٨ ـ **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة دار الفكر، بيروت ـ لبنان، بدون سنة طبع.
١٩ ـ **سنن البيهقي الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، طبعة مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٢٠ ـ **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، بدون سنة طبع.
٢١ ـ **السنن الكبرى**، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمٰن النسائي، تحقيق عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٢٢ ـ **سنن النسائي (المجتبى)**، أحمد بن شعيب عبدالرحمٰن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ـ سوريا، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٣ ـ **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، علي بن برهان الدين الحلبي، طبعة دار المعرفة، بدون سنة طبع.

٢٤ ـ **السيرة النبوية دروس وعبر**، علي محمد محمد الصلابي، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة ـ مصر، بدون سنة طبع.

٢٥ ـ **السيرة النبوية في دور القرآن والسنّة**، محمد أبو شهبة، طبعة دار القلم، دمشق ـ سوريا، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٦ ـ **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، مهدي رزق الله حمد، طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٧ ـ **السيرة النبوية**، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، طبعة دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٨ ـ **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٩ ـ **شرح معاني الآثار**، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، تحقيق محمد زهري النجار، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

٣٠ ـ **صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٣١ ـ **صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، طبعة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٣٢ ـ **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، طبعة دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٣ ـ **صحيح السيرة النبوية**، محمد رزق الطرهوني، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٣٤ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، بدون سنة طبع.

٣٥ ـ **صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة**، محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٣٦ ـ **العلاقات الدولية**، محمد أبو زهرة، طبعة القومية للطباعة والنشر، طبعة ١٣٨٤هـ.
٣٧ ـ **علل وأدوية**، محمد الغزالي، طبعة دار الشهاب، باتنة، الجزائر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣٨ ـ **عناصر القوة في الإسلام**، السيد سابق، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
٣٩ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، ابن سيد الناس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٤٠ ـ **غزوة الحديبية**، محمد عبدالقادر أبو فارس، طبعة دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٤١ ـ **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، يوسف القرضاوي، طبعة دار الشهاب عمار قرفي، باتنة ـ الجزائر، بدون سنة طبع.
٤٢ ـ **فتح الباري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، محب الدين الخطيب، طبعة دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، طبعة ١٣٩٨هـ.
٤٣ ـ **فقه السيرة**، **محمد الغزالي**، طبعة دار الشهاب، باتنة ـ الجزائر، بدون سنة طبع.
٤٤ ـ **فقه السيرة**، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الشهاب، عمار قرفي، باتنة ـ الجزائر، بدون سنة طبع.
٤٥ ـ **فيض القدير**، عبدالرؤوف المناوي، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.
٤٦ ـ **كشف الخفاء**، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تحقيق أحمد القلاش، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
٤٧ ـ **مائة سؤال عن الإسلام**، محمد الغزالي، طبعة دار المعرفة، الجزائر، بدون سنة طبع.
٤٨ ـ **المجتمع المدني في عهد النبوة**، أكرم العمري، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٤٩ ـ **مجمع الزوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، طبعة دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ.

٥٠ ـ **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق مصطفى ديب البغا، طبعة دار الهدى، عين مليلة ـ الجزائر، الطبعة الرابعة ١٩٩٠م.

٥١ ـ **مختصر سيرة الرسول**، عبدالله بن محمد النجدي آل الشيخ، طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها الروضة، مصر، طبعة ١٣٩٧هـ.

٥٢ ـ **المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية**، محمد جمال الدين علي محفوظ، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ـ مصر، بدون سنة طبع.

٥٣ ـ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٥٤ ـ **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، عبدالكريم زيدان، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٥٥ ـ **المسلمون والروم في عصر النبوة**، عبدالرحمٰن أحمد سالم، طبعة دار الفكر الغربي، طبعة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٥٦ ـ **مسند أحمد**، الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، طبعة مؤسسة قرطبة، مصر، بدون سنة طبع.

٥٧ ـ **مسند البزار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبدالخالق البزار، تحقيق محفوظ الرحمٰن زين الله، طبعة مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٥٨ ـ **مسند الطيالسي**، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، طبعة دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، بدون سنة طبع.

٥٩ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق كمال يوسف الحوت، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٦٠ ـ **مصنف عبدالرزاق**، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٦١ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي.

٦٢ ـ **المعجم الصغير**، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو أحمد الطبراني، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، طبعة المكتب الإسلامي، دار عمار، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٦٣ ـ **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبدالحميد، طبعة مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.
٦٤ ـ **مغازي رسول الله ﷺ**، عروة بن الزبير، تحقيق محمد الأعظمي، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٨١م.
٦٥ ـ **المغازي للواقدي**، محمد عمر بن واقد، تحقيق مارسدن جونس، طبعة عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
٦٦ ـ **منهج الإسلام في الحرب والسلم**، عثمان جمعة ضميرة، طبعة مكتبة دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
٦٧ ـ **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، مدينة النشر ـ مصر، بدون سنة طبع.
٦٨ ـ **نصب الراية**، عبدالله بن يوسف أبو محمد الزيلعي، تحقيق محمد يوسف البنوري، طبعة دار الحديث، مصر، طبعة ١٣٥٧هـ.
٦٩ ـ **نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية**، إسماعيل إبراهيم أبو شريعة، طبعة مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.





فهرس المواضيع

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

غزوة بني قريظة

ما بين الأحزاب والحديبية

صلح الحديبية

العنوان	الصفحة

غزوة خيبر

سرايا إلى القبائل

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام

عمرة القضاء

غزوة مؤتة

سرية ذات السلاسل

الفتح الأعظم (فتح مكة)

حجة الوداع (١٠هـ)

إلى الرفيق الأعلى

نظريتا السلام والحرب في الإسلام

نظرية السلام في الإسلام

نظرية الحرب في الإسلام

العنوان	الصفحة

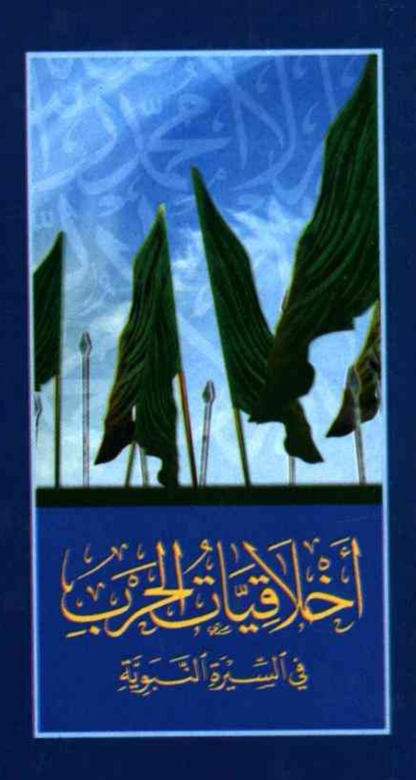
تسامح فريد

نصوص فُهمت على غير وجهها

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑






أخلاقيات الحرب
في السيرة النبوية


9 786144 160039